الحب عند شهيرات النساء

تأليف

ابـراهيـم المصـرى

تقديم ومراجعة

د.مراد عبد الرحمن

أستاذ علم النفس

الكتاب: الحب عند شهيرات النساء

الكاتب: ابـراهيـم المصـرى

تقديم ومراجعة: د. مراد عبدالرحمن

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المصـرى ، ابـراهيـم

الحب عند شهيرات النساء / ابـراهيـم المصـرى، تقديم ومراجعة: د. مراد عبدالرحمن.

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٦٢٢ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٥٤٣١ / ٢٠١٧

الحب عند شهيرات النساء





تقديم

المرأةُ هي الأمُّ والأخت والزوجة والصديقة، وهي نصفُ المجتمعِ الذي يلدُ النصفَ الآخر ويُربّيه، لهذا تُعدّ المرأة عمادَ المجتمعات وكيانَها، فإن صَلُحَت صَلُحَ هذا الكيان، وإن فَسدت كان كلُّ الجيل فاسداً، وهي أيضاً مخلوقٌ مليءٌ بالتناقض، ولهذا احتارَ الفلاسفة والحكماء في وصفها، وعلى الرّغم من تناقضها إلا أنها تجمع في قلبها وعقلها ما لا يستطيع أيّ مخلوقٍ آخر جَمْعَه من أفكارٍ وأحلامٍ وحُب ...

جاء في دراسة لقسم العلوم الإنسانية التابع للجامعة الفيدرالية البرازيلية «أوسب» في مدينة ساو باولو، بأن الرجل يحرص على مواصفات ومزايا المرأة التي يريد الزواج منها أكثر من سعيها هي وراء رجل تريد الزواج منه؛ وذلك عائد لحقيقة أنه لا يستطيع أن يخفي الأمور لفترة طويلة، ومن السهل عليها أن تكتشف ما يكنه تجاهها، ولكن الرجل الذي يتبع العقل والمنطق يقع ضحية التعقيدات العاطفية للمرأة، التي لا يستطيع فك ألغازها.

كما أن رفض المرأة للرجل غير المناسب يأتي في وقت مبكر؛ لأنها تتبع عواطفها في تمييز الأمور وتحليلها، بينما لا يتمكن الرجل من رفض المرأة بالسرعة ذاتها. إنه يبقى يدرس حالتها ويحلل ويفكر حتى يصل إلى درجة العجز في اتخاذ القرار المناسب تجاهها. المرأة على حد وصف الدراسة، تعتبر أكثر ذكاءً من الرجل في مجال العلاقات العاطفية والاجتماعية والإنسانية بشكل عام.

واستناداً إلى ما ورد بالدراسة فإن الرجل يبحث أيضاً عن مواصفات في المرأة تُناسبه وتساعده على الوقوع في حبها. الأذواق تختلف بالطبع إن كان بالنسبة للرجال أو النساء؛ فهناك الرجل الذي يُفضل جمال المرأة على أي شيء آخر لكي ينجذب إليها، وربما يقع في حبها. وهنا يجب أن نوضح أن عدداً كبيراً من الرجال، نسبة ٦٢ % منهم، بحسب الإحصائيات العالمية يخلطون بين الحب والانجذاب، فالانجذاب قد ينتهي، ولكن الحب لا ينتهي مهما مرت السنون .

متى استطاع الرجل أن يُفرق بين جاذبية المرأة والحب فإنه سيكون قادراً على اختيار المرأة التي يُمكن أن يقع في حبها. كما أن مواصفات الجاذبية واضحة ومعروفة، كما أكدت الدراسة أن الحرية التي يتمتع بها الرجل في المجتمع أكبر بكثير من حرية المرأة، ولذلك فهو ربما يتعرف إلى نساء كثيرات، ويُعطي تقييمه لهن في قرارة نفسه؛ فإذا استطاع أن يشعر بأن المرأة التي أمامه تشد انتباهه من حيث إنها تختلف عن نساء كثيرات بسبب تمتعها بميزات خاصة، فهي قد تكون المحظوظة من حيث وقوعه في حبها..

والرجل يتعلق جداً بالمرأة التي يشعر بأنه لا يستطيع فقدانها؛ لأنه لا يستطيع الاستمرار في الحياة من دونها، فإذا شعر بأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بامرأة ولا يُمكنه أن يتصور فقدانها أو حتى أن تتخلى عنه، عندها يُمكن أن يقع في حبها؛ ونسبة ٧٠% من الرجال لا يُحبون المرأة السهلة، التي يمكن أن تسلم نفسها بسهولة للرجل .

وما هو معروف أن الرجل يحب ويتمتع بتتبع المرأة الصعبة، التي تحترم نفسها وتفرض احترامها على الآخرين، بل إنه يفضل أن تطلب منه أن يحترمها؛

لأنها ليست شيئاً لا قيمة له، بل هي إنسان بحاجة إلى احترام الرجل لها بشكل كبير. هذا النوع من النساء هو الذي يُمكن أيضاً للرجال الوقوع في حبهن.

كما أن الرجل يُفضل أيضاً المرأة التي تكون سعيدة مع نفسها؛ لأن ذلك يعني أنها يُمكن أن تُسعد الآخرين. ومن المنطق أن يُفكر في هذا الاتجاه؛ لأنه ثبت أن المرأة التي تشعر بالسعادة مع نفسها قادرة أكثر من غيرها أن تُسعد من معها. وهذا يسهل الطريق أمام وقوع الرجل في حبها؛ كما أن نسبة كبيرة من الرجال يقعون في حب المرأة الواثقة بنفسها، والتي يُمكن أن يفتخروا بها عندما تكون بجانبهم، ويعرفونها على الأقرباء والأصدقاء بأنها شيء كبير ومهم في هذه الدنيا؛ وهذا هو موضوع هذا الكتاب الذي يتحدث عن الحُب عند شهيرات النساء؛ ونجد من هذا الكتاب أن المرأة هي المرأة في كُل زمان ومكان؛ وتسعي دائماً للحُب ولتكوين أسرة سعيدة؛ ولهذا يلقي الكاتب الضوء على مجموعة من النساء الشهيرات، ويوضح العلاقات الغريبة في حياتهن وعلاقاتهن بمن وقعن في حبهن، وهو ما يعطي لهذا الكتاب أهمية كبرى، ومتعة وتشويقا في تتبع حيوات تلك النماذج من النساء ساحرات الألباب والقلوب.. فهيا معا نتصفح فصوله وأبوابه بشغف وحب كبيرين..

د.مراد عبد الرحمن

أستاذ علم النفس



كلمـــة

تختلف شخصية المرأة العظيمة عن شخصية الرجل العظيم .. فالرجل العظيم تستغرقه رسالة الأدب أو الفن أو العلم ، فيوثرها على نفسه ، ويحاول متى أحب أن يغلبها على قلبه وعواطفه ،، وأن يعتبر المرأة عنصرا ملهما وحافزاً ومرفها فقط .. لذلك هو قد يغدر في عدم اكتراث مروع بالمرأة التى أحبها ، وقد ينصرف بغتة عنها إلى الهام ناضر جديد يحس أنه في حاجه إله من غيرها .. أما المرأة العظيمة فلا تستغرقها رسالة الفكر أبدا .. إذ الحب يظل قبلتها ، والطفل غايتها ، والولاء لرجل فرد حلمها المنشود ومثلها الأعلى .. فالعبقرية الذهنية وحدها لا تعزيها ، والمجد الذي تحرزه العبقرية لا يمكن أن يملأ فراغ قلبها إلا إذ اقترن بحب رجل يخلص لها ، وتمثل في تضحيات تبذلها هى من أجل هذا الرجل ويبذلها هو من أجلها ..فالحب عند الرجل العظيم وسيلة لا غاية . أما عند المرأة العظيمة ، فوسيلة لتحقيق عبقريتها ، وغاية أيضا يجب أن تفضي إلى إسعاد نفسها باسعاد الرجل الذى تحبه والذى تتمنى ان يكون هو زوجها ووالد أطفالها فمأساة المرأة العظيمة تكمن في محاولة الجمع بين العبقرية والحب ، أى في الجهد الذى تبذله كل تحقق عبقريتها ، وفي الجهد الذى تبذله أيضا كي تكون امرأة جميلة ومرغوبة ومحبوبة .. وهذا الكفاح الذى ينشد الظفر بقوتين ، قوة عقل الرجل وقوة فتنة الأنثى ، هو الذى يميز شخصية المرأة العظيمة ، وهو الذى حاولنا أن نصوره في فرحة الانتصار ولوعة الهزيمة وروعة البطولة ، ممثلا في حياة طائفة من أشهر النساء في عالم الأدب والفن

ابراهيم المصرى



الحب في حياة الشاعرة النرويجية ماريا هانس

تألق في سماء النرويج في أواخر القرن التاسع عشر اسم " ماريا هانسن " وهي شاعرة لم تضع ديوان واحد ، ولم يخفق فؤادها بغير حب واحد ، شعرت به نحو الشاعر والمؤلف المسرحى النرويجي المشهور " هنريك ايسن "

وهذه هى قصة غرامها العجيب الذى لولاه ما تألق اسم الشاعرة المسكينة ، وما رأى النور ديوانها الشائق الفريد

نشات ماريا هانسن في بيت متواضع في قرية بعيدة من قرى النرويج، فتشربت نفسها منذ حداثتها حب الطبيعة ، وتفتحت عيناها على مختلف ألوان الجمال الريفي

كانت تقضى معظم نهارها بين الحصادين ترعى مواشى والدها ، أو تشرف على شئون مزرعته ، أو تهتم باخوتها الضغار ، أو تغنى بصوتها الناعم الرخيم غناء يجمع الفلاحين حولها ، ويثير في نفوس الشباب منهم أرق الانفعالات وبعد أن أتمت ماريا دروسها الابتدائية في مدرسة القرية ، أبت أن تذهب إلى باريس لاستكمال علومها كما نصحها والدها ، وقنعت بالاشراف على مزرعته أسعد ما تكون بحياتها البسيطة الهادية

والواقع أن الولع بالتفكير والتأمل والتخيل وقرض الشعر كان متمكنا منها . فكانت لا تفتأ تقرأ القصص ، وتنعم النظر في دواوين الشعراء ، وتستلهم وحيها من مشاهدة الحقول تتألق في الصباح تحت أشعة الشمس ، والفلاحات الصبايا يتراكضن على العشب الأخضر ضحكات هانئات ، والشباب يبذرن البذور ويجنون الثمار ، والنساء يتعهدن البيوت والاولاد والماشية ، أو يذهبن إلى الكنيسة ، حيث يلقى الكاهن الشيخ عظاته البليغة ، وحيث التسابيح والترانيل تتصاعد من قلوب طاهرة نقية مؤمنة ..

وتشبعت ماريا بالعواطف الحالمة الرقيقة والمبادئ الخلقية السامية . فكانت ساذجة النفس في شمم وأباء ، بسيطة الروح في توقد فكر وحدة ذكاء ، تندمج في الاوساط الفقيرة عن طيب خاطر ، وتشترك في كل هيئة وجماعة ترمى إلى إغاثة التعساء وإسعاف المنكوبين ..

وكانت إلى هذا رمز الطلاقة والمرح وعنوان الشباب الناضر الحي ، تبتسم وتضحك للجميع ، ولا تتبرم بأشق الاعمال وأوضعها ، بل تقبل عليها في فرح ونشوة واغتباط ، كأن العمل مادة حياتها ، وكأن الجهاد اليومي واجب مقدس فرضته عليها قوة علوية لابد من إطاعتها والإذعان لها ..

ولم يكون بين فتيات تلك القرية من تشبه ماريا في صبرها وجلدها وقدرتها على العمل ، كما أنه لم يكن بينهن من يشبهها في جمالها الباهر الفتان .. كانت مديدة القامة في امتلاء لين ، سوداء العينين في يقظة دائمة يمازجها الحلم ، مشرقة الوجه ، موردة الخد ، موفورة الصحة ، يتهدل

شعرها المموج الغزير فيغمرها ، فتبدو من خلاله رائعة مهيبة ، عليها مسحة من وحشية الفطرة يلطفها ظل ابتسامتها البادية الصفاء

وكان شبان القرية يهيمون حبا بها ، ويعقدون حلقات السمر حولها ، ويبذلون جهدهم في التقرب إليها وخطب ودها .. أما هى فكانت تحترم نفسها ، ولا تسرف لا في الحديث ولا في المزاح ، بل تظل محتفظة بروحها المرحة وملتزمة حد الوقار والاحتشام ..

وهكذا أسرت ألباب الجميع ، وفازت باعجاب الجميع . ولكنها لم تشمخ ولم تتكبر بل زادها التقدير ظرفا وحياء ..

وكان أجمل شباب القرية يحومون حولها . فكانت محدق في صراحة وبراءة وفطرة حرة سليمة إلى عضلاتهم القوية ، وأكتافهم العريضة ، وقاماتهم المديدة ، وبريق الصحة والفتوة المنسكب على وجوههم الضاحكة . ولكنها لم تطل التفكير ابداً في واحد منهم ، ولم تؤثر شابا على آخر ، ولم تشعر حيال أى كائن بعاطفة الحب العاتية المجتاحة التى كانت تقرأ عنها في دواوين الشعراء..

وكان قد أثر فيها سلطان العاطفة والخيال أبلغ تأثير..فتصورت الحب احساسا معنويا بحتا ، وشعوراً قدسياً طاهراً ، وقوة سامية خارقة تهذب الأهواء والميول . فاستسلمت آخر الامر لتلك القوة ، وطفقت تناجيها ، وتدعو الله أن يهبها إياها في شخص شاب خليق بالحب ، جديرة بالثقة والتقدير والاعجاب . وهذا الأمل هو الذى كانت تصبو إليه ماريا ..

كانت تتوق إلى حب أشبه بالعاطفة الدينية منه بالحب ، ولكنها كانت تجيل الطرف حولها فترى عيون السبان تنهبها ، ونظراتهم تلتهمها ، وعباراتهم المعسولة لا ترن في أذنيها إلا لتطرى محاسن بدنها الوضيع الفانى

ولما يئست ماريا من تحقيق حلمها والعثور على الشاب الخليق بها ، تحولت شخصيتها وتبدلت شيئا فشيئاً: تجهم وجهها ، وزايلتها ابتسامتها الناضرة ، وبدأت تهجر المجتمعات القروية ، وتنفر من الفلاحين ، وتعرض عن الشبان ، وتمعن في العزلة ، وتنقطع للتأمل والشعر وأعمال البيت والمزرعة ..

ولم تعد تنبعث أغانيها العذبة الرخيمة من نافذتها الصغيرة المطلة على حديقة البيت ، وفقدت تلك النافذة أطارها السحرى ، وغشت الدار كلها سحابة قائمة .. فراح شبات القرية يستفسرون والد ماريا عما حل بابنته ، وينصحون له يتزويجها على عجل خشية أن يعصف بها داء العذارى ويرديها مورد التهلكة ..

وكانوا يعتقدون في القرية أن لابد لكل عذراء من الزواج في سن معينة ، والا غضبت عليها الطبيعة وابتلعتها بمرض الحسرة والأسى وقضت عليها بالموت البطئ المحتوم

وأذعن الوالد لحكم التقإلد ، وفرض على ابنته الزواج من شاب ثرى يملك أبوه في القرية ضياعا واسعة .. فثارت ثورة الفتاة ، وقاومت ، وظلت تقاوم شهورا طويلة ، وملء نفسها الأمل في أن يترفق القدر بها ، ويمن عليها فجأة بالشاب الذى تحبه والذى يمثل في خيالها فتى أحلامها المنشود ..

ولكن القدر الغاشم أبى إلا أن يلهو بها ويسخر منها . فمرت الأيام تلو

الأيام وهى صامدة صابرة معذبة على غير جدوى مما زاد في قلق والدها وحمله على أن يسرع يتزويجها قبل ان تعتل صحتها وينشب فيها الداء الخبيث مخالبه..

وهكذا خطبت ماريا إلى الشاب القروى الثرى على الرغم منها ، فطأطأت رأسها يائسة ، وامتثلت مكرهة لحكم القدر

ومع ذلك فالقدر لم يرحمها ، وظل متربصا بها حتى غافلها ، وتمكن منها، ثم سدد إليها طعنة أصابتها في صميم كرامتها وكبريائها ..

كان خطيبها فتى ماجنا مستهترا ، عربيدا ، وكان قد اتصل سرا بفلاحة يتيمة يائسة ، فحملت منه ، وأعلنت في القرية كلها أنه والد طفلها .. فهبت ماريا وروعت ، واشتد بوالدها الحنق والسخط ، ولم يجد بداً من فسخ الخطبة وكرد الخطيب ..

وابتهجت ماريا ، وتنفست الصعداء ، وآلت على نفسها ألا تتزوج أبداً إلا فتى أحلامها .. ثم عكفت على المطالعة والتأمل ، وقرض الشعر ، تلتمس في نشوة الخيال عزاء لقلبها وسلوى ..

وهذه هى القصيدة الرائعة التى أبدعتها في تلك اللحظات ، وأطلقت عليها اسم : " الصوت السحرى " :

****

" كان النهار ساطعا بديعا .. ولكن الغابة كانت مظلمة كثيفة .. فراق للفتى الساذج القروى أن يترك النهار ويقتحم الغابة ، ويقضي فيها إليوم كله بعيداً عن الحركة وبعيداً عن الناس ..

وفيما هو يمشي بين الاشجار الباسقة ، والأغصان الملتوية ، والنبات الوحشي ، سمع صوتا غريبا ، صوتا رخيما ، ينبعث من جوف الغابة ، ويترامى في رفق إليه منسكبا على روحه انسكاب نقط الندى على الزهرة الوسنانة في فجر الصباح ..

وراعه الصوت الساحر ، فجلس على الارض متأملا .. ثم هب واقفا وقد لمعت عيناه ، ثم انتزع من أحدى الاشجار قصبة ، ثم شرع يهذب القصة ، ويصنع منها نابا ، وعقله الباطن يلقى في روعه أن نغمات ذلك الصوت الغريب قد تتجمع فجأة وتستقر في احشاء هذا الناى ! ونفخ في الناى ، فمسع الصوت يهمس باسمه .. ونفخ فيه مرة ثانية ، فسمع الصوت يردد حيرته وقلقه ، فتشبث بالناى ونادى الصوت أيضا .. ولكن الصوت خانه بغتة ، وفر منه وطفق يعدو في أرجاء الغابة كما تعدو اللهفة المخبولة أمام الامل العاجز المحترق المسكين ! ..

وظل الفتى ينشد الصوت ويعذب الناى ، حتى كلت ذراعه ، وكلت شفتاه فنام ..

نام وهو يفكر .. نام وهو يحلم .. نام وهو يبكي .. وانه لمستغرق في سباته ، واذا بالصوت الماكر الهارب .. الصوت الغريب الرخيم ، يترامي إله على مهل ، ويداعب جبهته في رقة ، ويوشك ان يقبله في حنان .. فهب من نومه مذعوراً يحاول اقتصاص الصوت ، وتلاشي في أعماق الليل البهيم ..

وكاد الجنون يبعث بعقل الفتى القروى ، فنهض من فوره ، وذهب

ذهب إلى الله وقال له وهو يمزق صدره ويبكي : أريد ان أعرف سر هذا الصوت يا إلهى ! .. أريد أن أنفذ الى جوهر هذا الصوت السحرى ياربى!.. لقد سلبنى عقلى وجسمى ، فاكشف لى عن حقيقته أو فاهلكنى.. فقال له الله وهو يتأمل :

– الغابة يابنى هى الحياة العليا .. وهذا الصوت يابنى هو صوت الحياة!.. صوت الحب يغرده النبات ، وصوت الخير تغرده الغصون ، وصوت الحق تغرده الرياح ، وصوت الكمال المطلق تغرده الشجرة الباسقة الذاهبة في جرأة القوة والمعرفة إلى عنان السماء !..

لن تمتلك هذا الصوت مهما حاولت ، أما هو فيمتلكك ، ويعيش فيك ، ويدفعك بالرغم منك إلى الإمام !.. وقد كنت عليك يابنى أن تسمعه ، وكتب عليك يابنى أن تنشده ، ولكنك مهما حاولت فلن تمتلكه أبداً ..

فحنى الفتى رأسه في خشوع .. ثم كر راجعا ..

كر راجعا الى الغابة وطفق مع ذلك ينفخ في الناى !..

****

ومرت الاعوام الطويلة ، الاعوام المكفهرة الملبدة الخانقة ، وفتى الاحلام يتقلص ويتباعد ، ويستحيل في ذهن ماريا من جسم نابض حى الى

مجرد ضوء وأهن ، أو صوت خافت ، أو أمل عابر ، لا يكاد يبتسم ويضحك حتى يتبدد وينحل كأنه طيف خيال ..

واعتقدت ماريا أن في وسع الشعر أن يملأ فراغ قلبها ، ويمدها بقوة روحية تمكنها من المضي في الصبر والانتظار .. ولكن الفطرة كانت أقوى من الخيال ، والطبيعة أقوى من الارادة . فدبت الحسرة في قلب العذراء ، وأحتواها إلىأس ، وأوشكت أن تعصف بعقلها لوثة من جنون عندما أبصرت نفسها تجاه مرآتها ، فتاة عانساً ، شاحبة اللون ، ذابلة الحسن ، ضامرة التقاطيع ، يكمن في عينيها الاسي ، وتكاد اللوعة أن تعصر شبابها، وتذهب بالبقية الباقية من جمالها الباهر الفتان..

وضاعف هذا التدهور يأسها ، فتشبثت بعزلتها ، وعافت الطعام والشراب فهزلت ، واشتد شحوبها ، وباتت أشبه بهيكل عظمى منها بامرأة..

وجن جنون والدها ، وعاد فأصر على تزويجها بشاب من أقاربه .. ولكنها استمسكت بفكرتها ، وذادت عن حلمها ، ودافعت عن مثلها الاعلى . فحار الرجل واضطرب ، ولم يستطع إلا أن ينزل على إرادتها ويسلمها لحكم حظها

وكانت قد اعتادت الاسراف في الصوم والصلاة ، وفي الخروج ليلا بمفردها ، تضرب في الحقول الباردة ، وتستهبط وجى الشعر من مرأة ذلها وحسرة قلبها . ففاجأها ضرب من السعال الخشن المنقطع الحاد ، وتقوس

صدرها بغتة ، وبدأت تساورها الحمى . فروع أهل القرية جميعا ، وتهامس النساء بأن الفتاة مقضي عليها ، وانها قد أصيبت بداء العذارى . غير أن ماريا لم تحفل بنفسها ، ولم تستمع لنصائح وارشادات القرويات المجربات ، وطفقت تمعن في الصوم الصلاة ، يقينا منها أن الشعر لم يعد يكفيها ، وأن الله وحده قد أصبح ملاذها الأول والأخير ..

وعندئذ ، هبط بالقرية لقضاء عطلة عيد الفصح ، الشاعر والمؤلف المسرحي " هنريك أيبسن " ..

وكان الشاعر أيبسن في ذلك العهد فتى في نحو الثالثة والعشرين من عمره ، عالي الجبهة ، غزير الشعر ، ممشوق القد ، في عينيه الحادتين بريق ساطع مميز ، وفي مظهره الهادئ المتزن رجولة مطمئنة واثقة ، تملأ شبابه فتنة وسحراً ، ويأخذ تأثيرها بمجامع الألباب ..

وكانت ماريا قد سمعت باسمه ، وقرأت بعض قصائده وأعجبت بها .. فما أن راته رأى العين حتى ارتعدت فرائصها ، وتولاها وجوم وذهول .. أحست لأول مرة في حياتها أن تلك الاستجابة الروحية الخارقة التى تنشدها قد اندفقت بغتة من كيان ذلك الشاب النابغة الجميل وجرفتها ..

أحبت الشاعر بكل قوى صبرها وبأسها وحرمانها ، وتهافتت عليه.. اجتذبته الى بيتها ، وعرفته إلى أهلها وأطلعته على أشعارها ، ومضت تخرج في صحبته إلى المزارع والحقول ، متحدية كل شئ وغير مكترثة لشئ

أما الشاعر الشاب فقد راعته بساطتها وطيبة قلبها ، وهالة المرض

المحيطة بوجهها الضامر ، تسكب عليه فيضا غامرا من الحلم والاسى .. فانجذب إليها ، واستمع لبعض أشعارها . فازداد أعجابا بها ، وانقياداً لها ، ورغبة في مد أجل اجازاته ، وقضاء أطول وقت ممكن بجوارها ..

وكانت الفتاة قد احبته حبا بلغ حد الشغف والهيام . وكان هو أيضا يميل إليها ، ويأتنس بها ، ويستريح إلى وجوده بقربها . ولكنه كان مع ذلك يستغرق في الصمت أحيانا ، وينعم في التأمل والتفكير ، ولا يتورط أبدا في كلمة أو عبارة يمكن أن تعتبرها الفتاة اعترافا بالحب ، أو وعدا صريحا بالزواج..

والواقع ان القدر لم يرحم الفتاة المسكينة في هذه المرة أيضا .. كان الشاعر يعطف عليها ، بل ويحس نحوها بشعور أقوى من العطف والحنان.. ولكنه كان مرتبطا بغيرها ، مقيدا بفتاة حضرية من بيئته وطبقته ، أحبها وعاهدها على الزواج منذ عامين ..

هذا العهد الذى قطعه الشاعر على نفسه هو الذى كان يضطره الى الصمت والحذر وتجنب الاسراف في الاعراب عن عواطفه ، خشية أن تزداد الفتاة تعلقا به ، فتصاب بخيبة أمل مرة لا يستحلها ضميره الطاهر النقى ..

وهكذا كان أيسن يتأرجح بين حب وحب .. بين حب استقرت عليه نفسه وحب طارئ عجيب لم يكن في حسبانه أبداً ،وظل مترددا يقظا كتوما ، والفتاة تلاحظه ، وصدق غرامها يأسره ، وجمالها الذى كان بدأ ينتعش ويتجدد يطوف بذهنه ويملا فسحات حياته ، ويضرم في قلبه النار ..

ولقد هم يوما بان يكاشف ماريا بحقيقة عواطفه نحوها ، ثم يسرع إلى المدينة فيقطع كل صلة له بخطيبته .. ولكن ذكريات حبه الأول عادت فتمكنت منه ، فثار على ضعفه ، وأبى عليه ضميره النزيه أن يكون وغدا ينحث بإلىمين التى أقسمها لخطيبته فلكي لا يستبد به حبه الجديد ويلهب في صدره عوامل الرحمة والشفقة ، استجمع قواه ، وحزم أمره ،ووطن النفس على توديع ماريا ومغادرة القرية ..

وكانت لحظة الوداع فاجعة ..

لم تستطع ماريا أن تتكلم أو تصرخ أو تذرف دمعة .. كان الذهول قد استحوذ عليها ، واحالها إلى انسان مسلوب الحول ، طائر اللب ، شارد وتائه مذعور .. فلم تجد عزاء الا في الشعر ، فوضعت هذه القصيدة الممزقة في بساطتها ، والتى أشتهرت فيما بعد ، وجرت على كل لسان:

***

رأيته فجأة فاضطربت ! ..

كان يجب ألا أنظر إله ، أو أكثرت له أو أكون في تلك اللحظة واقفة في الطريق الذى مر به ..

ولكن ما حيلتى؟ ..

كان بيتى تجاه بيته ، وقلبى تجاه قلبه ، ونفسي الحزينة ظمأى إلى الحياة ..

خاطبنى فجأة ففرحت .. كان يجب ألا أرد عليه ، أو أحفل به ، أو أدع روحي تسبح في رنة صوته وغمغمة هواه ..

ولكن ما حيلتى ؟..

كان فكرى تجاه فكره ، وحلمى تجاه حلمه ، ونفسي الحزينه ظمأى إلى الحياة ..

أحبنى فجأة فطربت ! ..

كان يجب ألا أصدقه ، وألا أحبه ، وألا أدع روحى تعبده ، وتسبح ملهوفة في غمرة جماله ونشوة صباه ..

ولكن ما حيلتى ؟ ..

كان ضعفي تجاه قوته ، وأنوثتى تجاه رجولته ، ونفسي الحزينة ظمأى إلى الحياة ..

خدعنى فجأة فذهلت ! ..

كان يجب أن أبغضه ، أن أطرده ، أن أصب في قلبى دم الكرامة وأضرم في عروقى شعلة الكبرياء ..

ولكن ما حيلتى ؟ ..

كان وجهى تجاه وجهه ، وبصرى تجاه حسنه ، ونفسي الحزينة ظمأى

إلى الحياة ..

تركني فجأة فجننت ! ..

كان يجب أن أنساه وأمضي ، أن أنساه وأفرح ، أن أبادله غدرا بغدر ، ولؤما بلؤم ، وعارا بعار ..

ولكن ما حيلتي ؟ ..

عذابي يلهب حبي ، وحبي يلهب وفائي ، ووفائي يلهب أملي وصبري ..

وهانذا في لوعة الامل ، وحرقة الصبر ، ومرارة الانتظار ، أبكي ضيعة وفائي ، وأسأل قلبي الحائر :

متى .. متى يعود ؟! ..

ولما أختفي الشاعر ، انفجرت عواطف ماريا .. فظلت تطوف بالقرية كالروح الحائر ، وتصرخ وتجأر وتبكي بكاء الاطفال ..

أسودت الدنيا في عينيها .. ثم سحقها إلبأس ، وأسدل الستار على ىخر أمل لها في الحيأة ، فلم تعد تقاوم ، ولم تعد تفكر ، ولم تعد تتأمل أو تتخيل أو تطالع أو تنظم الشعر ..

لم تجد في أية متعة ذهنية ما يمكن أن يعزيها ولهم قلبها الصبر ..

وبدل أن تلوذ بقرض الشعر لتنسي عكفت على الصوم ، والصلاة ، وأسرفت في الزهد والتقشف .. فعاودها السعال المتقطع الحاد ، ودبت في أوصالها وعدة الحمي ، وهزل بدنها ، واندلعت عيناها ، وارتسمت على خديها الغائرين تلك الحمرة المتوهجة التى كان يرى القرويون فيها نذير خطر داهم وشر مستطير ..

***

أما الشاعر أيسن ، فما أن هبط المدينة ، واتصل بخطيبته ، وتأملها، واستمع لحديثها ، وأنعم النظر في شخصيتها ، حتى بدأ يستفيق شيئا فشيئا وتنجاب عن عينيه السحب ..

أحس على دهش منه ، أحس وهو قلق محير مبهوت ، أنه قد تغير وتبدل .. فاضطرب وراجع نفسه ، وأحكم صلته بالفتاة عامدا ، وظل بالقرب منها شهرين طويلين يمتحن قلبه وعواطفه ليستوثق من ذلك التحول العجيب الذى طرأ عليه

وفجأة ، وفي مثل خطف البرق ، أو ومض الطرف ، أدرك كل شئ..

أدرك انه لم يعد يحب خطيبته ، وان ماريا قد سلبت لبه ، وملكت فكره ، واحتلت خياله ، واستقرت من نفسه في الصميم ..

ادرك أن ليس في مقدوره أن يبر بوعده ، وأن يصل حياته بالفتاة التى كان قد عاهدها على الزواج .. فأبى أن يكذب عليا، وابى ان يخدعها ،

وصارحها ذات يوم بالحقيقة كلها . فتعذبت عذابا شديداً ، ولكنها آثرت الصدق على الكذب ، والصراحة على الدخيعة والتورط . فخضعت في النهاية واستسلمت ، ولم تجد بداً من أن تحل الشاعر من قسمه وتنصرف عنه ..

ولما شعر أيبسن أن حريته قد ارتدت إلىه ، احتواه فرح جنوني ولم تعد تسعه الدنيا ..

عزم أن يذهب من فوره إلى القرية .. عزم عزما قاطعا أن يتزوج ماريا. فاسرع وانهى إلى والديه النبأ ثم حزم أمتعته ، وأبتاع تذكرة السفر ، وركب القطار وهو فرح طروب ، يحس أن السعادة قد دانت له في النهاية، وأن العالم بأسره أصبح طوع يديه ..

ودخل القرية مشرق الصفحة ، ظاهر النظرة ، مؤمنا بالنصر . ولكنه ما أن أشرف على منزل حبيبته ، حتى أبصر بعض القرويات خارجات منه، ويحملن ملابس وأوراقا ، ويراكمنها على عتبة المنزل ، وتهم أحداهن بأن يشعل فيها النار ..!

فبهت الشاعر وتراجع ، ثم أقبل على قروية عجوز يستطلع منها جلية الامر .. فقالت له والدمع يطفر من عينيها أن ماريا قد توفيت بالأمس ، وانها ماتت مصدورة ، وأن من عادة اهل القرية أن يحرقوا ملابس المصدورين انقاذاً لاهلهم ، وتطهيراً للبيت من الارواح الشريرة ...

فأحس الشاعر كأنما قد انقضت عليه صاعقة . انخلع قلبه ، وانهار بدنه،

وأوشك أن يسقط على الأرض ، غير أنه لم يكد يبصر النار تندلع في كومة الملابس والاوراق حتى استضاء عقله بغتة ، فانقض على الكومة وهو يصرخ ، وركل الملابس المحترقة ، واختطف جميع أوراق ماريا وطفق يدسها في جيوبه وهو يلهث ..

وكانت هذه الاوراق هى كل حياة الفتاة المسكينة ، كل آلامها وآمالها .. وكل ما خطته يدهل من شعر صادق حى ، ينبض بالعاطفة ويختلج بالعذاب ..

***

وكر أيبسن راجعا ، محنى الرأس محدودب الظهر ، محطما ، تضم يداه المرتعشتان كومة الاوراق العزيزة الثمينة التى كانت البقية الباقية من ماريا هانسن، والتى حرص عليها الشاعر جهده ، حتى نظمها ونسقها واستطاع أن يؤلف منها ديوانا كاملا خلع عليه اسم : " الآمال الغادرة " .. وكان هذا الديوان هو الاثر الرائع الذى بعث حبيبته وأحياها ، وأدرج أسمها في سجل الخالدين ..

عالم الصمت

الحب في حياة الرسامة المجرية هيلدا كامف

" هيلدا كامف رسامة مجرية نابغة ولدت في بودابست في مستهل هذا القرن، وعاشت مأساة فكرية وجثمانية غريبة ، تبدأ قصتها بهذا الخطاب الانسانى المؤثر الذى بعثت به المرأة إلى الرجل الذى أحبته وكان فيما بعد زوجا لها "

عزيزى شارل ..

أوصدت الدنيا على أبوابها ، ولم تهبنى غير نعمة النظر التى تضاعف أحساسي بذلى وعجزى ووحدتى .. العالم يصطخب حلوى وانا لا أسمعه .. ارى الناس تتحرك ، والسيارات تركض ، والطيور تغرد ، وأذنى الصماء لا تعي شيئا من كل هذا المرح الرائع الذى يمثل فتنة الكون ، وسحر الدنيا .. كأنى أعيش في سجن مظلم ضيق لا يملؤه إلا ضجيج أفكارى ولوعة يأسي، وحسرة قلبى الممزق المعطون .. أصبح الكلام عدوى لأنى لا أفهمه، وأصبح كل متكلم غريمي لفرط احساسي بالعجز وأنا أحاول أن أسمعه .. ولقد نبذنى الجميع لأنى لست منهم ، وأعرضوا عنى لانى لا أستطيع أن ابادلهم أفكارهم وعواطفهم ، بل لقد راحوا يسخرون منى ، ويهزاون بى كأنى مخلوقة مشوهة لا تصلح لا للفكر ولا للعاطفة ولا للحياة ..

أن هذا الصمم المروع الذى أبتلانى به القدر وانا في الرابعة عشرة من عمرى عقب حادث سيارة كاد يودى بحياتى ، ليجعل منى في نظر الناس امرأة عجوزا خليقة بالزراية والاحتقار ، في حين انى مازلت في مستهل حياتى ومطلع شبابى أحوج ما أكون إلى العاطفة وأحوج ما أكون إلى الحب والرحمة .. لا يريد أحد ان يرحمنى .. لا يريد أحد يرهق نفسه بالتحدث الى .. الكل يفر منى كأنى امرأة موبوءة ، والكل يتمنى من صميم قلبه لو انى حجبت نفسي في دير ، او دفنت نفسي حية ، ليتخلص من وجودى ، ومن مرضي ، ومع ذلك الجمود الهامد الابله الفظيع الذى يرتسم على وجهى كلما ظهرت في المجتمع ، وكلما شهرت انى لا أسمع ولا أفهم ولا أدرك شيئا مما يقال حولى ! ..

أن أحتقارة لنفسي أصبح سم حياتى ، واحتقار الغير لى أصبح مادة حظي ، واحتقارة للدنيا بأسرها أصبح جوهر فلسفتى ، وسر عزائى ..

ولكن كيف يمكن أن اتعزى وأنا إلىوم شابة في الخامسة والعشرين ، تمثلا خيالى الآمال الكبار بالرغم منى ، ويدفعنى دمى المشبوب ، وعواطفي المضطرمة إلى المطالبة بحقى في الحياة السعيدة المشروعة أسوة بغيرى؟.. هذا هو جحيمي !..

تنادينى الحياة فيحبس الناس صوتها عنى ، وأصبو إلى الحب والزواج فيتبرم بى الشباب صوتها عنى ، وأصبو إلى الحب والزواج فيتبرم بى الشباب ويسخرون منى .. ثم يبتسمون لى ابتسامة ماكرة غادرة تردنى الى عزلتى ، وتردنى الى شيخوخة روحى ، وتقنعنى بأة ليس للرحمة المقدسة أى وجود في

القلب البشرى ! ..

تلك كانت حياتى .. بل هذه هى الحياة البائسة المنكودة التى عشتها حتى إلىوم .. ولقد حاولت أن أملأ فراغها بفنى ، فأبدعت رسوما جميله ، وصورا خارقة ، وألوانا وظلالا قيل أن فيها لمعة من عبقرية . ولكنى مع ذلك لم أسترح ولم أسعد .. وهل يسعد الخيال امرأة ؟ هل يمكن أن يحل حب الفن محل حب الزوج والانباء في قلب أية امرأة ؟ .. المرأة في حاجة إلى شئ تلمسه .. إلى شئ واقعى تعبده .. إلى جسم حى ترعاه وتخدمه ، وترى فيه خلاصة الحياة وعصارة الدنيا ! ..

وهذا الجسم الحي هو الذى حرمنى المرض منه .. فبت أتصوره بكل آمالى ، بكل رغباتى ، تصورا طاغيا جارفا أوشك أن يعصف ايضا بعقلى ، ويردينى مورد الهوس والجنون .. ثم .. ثم جئت انت ! .. قلت لى انك تحبنى ! .. تحبنى انا ؟! .. تعشقنى انا ؟ ! .. تريد أن تقترن بى أنا ؟!.. لقد خيل إلى أنك جننت أكثر منى ، فراجعتك ، ثم انتهرتك ، ثم أقصيتك .. ولكنك عدت إلى تردد نفس الكلمة ، وتلهج بنفس العبارة ، وتستعطف وتتوسل .. والحق انى اعتقدت وما زلت اعتقد انك تكذب ... لا تكذب على بل تكذب على نفسك .. تموه على نفسك الحب شفقة على ورحمة بى ورغبة في انقاذى ! .. ولكنى أرفض هذه الشفقة !.. الشفقة شر من الخديعة السافرة لأنها خديعة مستورة تضللنا بروعتها فلا نتحرج عن أن نضلل بها الآخرين .. فإذا كنت تشفق على فقط ، أو تعجب بى فقط ، واذا كان ضميرك الانسانى هو الذى يريد وحده أن يسعدنى ، فانصرف

عنى حالا ودعنى أموت كمدا في عزلتى .. أما اذا كنت تحبنى حقا ، تحبنى فعقلك ، وتحبنى بقلبك ، وتحبنى بجسدك .. فأنا التى أشفق عليك بقلبك ، وتحبنى بجسدك .. فأنا التى بعد أن انبهك وأوقظك واقول لك في صراحة مع أية امرأة ستعيش غدا ، وبجوار أية امرأة ستقضي حياتك أيها الشاب الطيب الجميل ..

لن اسمع حديث حبك ، ولن أفهمه .. لن اسمع وجيب قلبك ولن اقنصه .. ستعيش معى رافعا صوتك ابداً في أذنى ، مرهقا أعصابك لتصب كلامك في سمعى ، ثائراً متمردا حانقا على مرضي ، شاعرا ابلغ شعور واعمقه بانك تعيش وتتحرك وتنطق في عالم غير عالمي .. سيحتقرك الناس انت أيضا اذا تزوجتنى .. سيهزأون بك كما يهزأون بى .. ستدرك أنك قد انفصلت عن العالم وأنت معهم كما انفصلت عن العالم وأنت معى.. فهل في وسعك احتمال كل هذا العذاب من أجلى؟ .. فهل في وسعك احتمال كل هذا العذاب من أجلى؟ .. انعم النظر في قرارة قلبك.. انى لاكاد أتمزق شفقة عليك .. لأنى .. لانى أنا أيضا أحبك ! .. ولقد احببتك لأنك أول رجل اخرجنى من ظلمتى ، وأول رجل تجاسر وتحدى المجتمع وطلب يدى ..

فأنا متأهبة لقبولك زوجا لى ، ولكنى مع ذلك أنصحك بالتريث والتفكير، بالتؤدة والصبر، خيفة أن يستفيق عقلك في يوم من الايام فتندم

فعد إلى نفسك ، وانظر الى النساء ، وفاضل بينهن وبينى .. واذا شعرت في أعماق قلبك أن شيئا أقوى منك بدفعك إلى ، ويرغمك على

حبى ، ويضطرارا غلى قضاء عمرك كله بجوارى ، فاطرق يأبى ولا تردد ..

ستجدنى في انتظارك ، مفتحة الذراعين لك ، اضمك إلى صدرى ، واهمس في اذنك الواعية ، أذنك السليمة ، انى ملكك وأسرتك ، بل خادمتك وعبدتك مدى الحياة ! .. "

***

وأحدثت هذه الرسالة أبلغ الأثر في نفس شارل .. أكبر صراحة الفتاة واستقامتها ، فالتهبت عاطفته ، واضطرم حبه ، وأبى أن يفكر ويصبر وينتظر .. وفي صباح إلوم التالى ذهب إلىها ، وطلب يدها من اهلها ، ثم تزوجها بعد شهر واحد ، وبدأت الحياة ..

وكانت حياة مرحة طلقة لم ينفذ إلىها أى هم ، ولم تعكر سماءها الصافية أية شبهة من ضباب ..

كانت ترى زوجها أكثر ألف مرة مما كانت تسمعه .. كانت تفهمه بعينيها وتخاطبه بنظراتها ، وتحس رنين صوته ومعناه بكل ما في كيانها من حب وشكر وولاء وأخلاص . كان حبهما أقوى من المرض ، فلم يشعر أحد منهما أنه في حاجة الى الثرثرة والكلام . وهكذا كانت الفنانة تجلس في مرسمها ، وتعكف على لوحاتها ، فيدخل عليها شارل ، حابسا أنفاسه ، ملطفا من وقع خطاه ، ثم ينحي عليها ، ويتأملها وهى ترسم . فتلتفت إلىه ، وتبتسم له ، ثم تقبله قبلة محمومه.. وتنصرف بعدها إلى العمل في هدوء، وشارل يراقبها

وكان نبوغها يضاعف هيامه بها .. فكان يغفر لها أنها لا تسمعه ، ولا تستطيع أن تشاركه متعة الحديث . يبد أنه كان في بعض الاحيان يتألم .. كان يتألم كلما اضطر إلى الانحناء عليها ، والصاق شفتيه بأذنها ، ومحاولة اسماعها كلماته التى كانت تنعثر في فمه لفرط رغبته في توكيد دقائقها وتفاصيلها .. وكانت المرأة تشعر بذلك فتتألم هى الاخرى ، وكانت تضطرب ، وكانت تخاف ..

وكان خوفها لقى على محياها ظلا كثيفا من القلق ، فتبدو في تلك اللحظات وكأنها ترتد إلى نفسها وتعيش في العالم المفلق الذى كانت تعيش فيه قبل أن تعرف الحب ، وقبل أن تعرف الزواج

على ان شارل لم يكن ليكترث طويلا بهذه الحالات النفسية العابرة . كان يحب زوجته ، وكان يعجب بها ، وكان قد ألف مرضها ، واعتاده ، وجرد نفسه عامدا من كل نزعة تدفعه غلى التبرم به .. غير أنه كان يعيش مع امراته في عزلة ، وكانت هذه العزلة بالذات هى التى جعلته يصبر وهى التى عودته غلى العارض الشاذ كأنه عارض طبيعي مألوف ..

فلما انقضي شهر العسل ، وانقضي شهر آخر على زواجهما ، وبرزا الى المجتمع ،وتحولت الحياة عن مجراها ، وتطور وتبدل فجأة كل شئ .. خرج شارل من الظلمة إلى النور ، من السكينة إلى الحركة ، من الصمت إلى الكلام ، من العزلة غلى الوجود .. فبهرته أضواء المجتمع وبهرته أضواء النساء ، فرأى الشفاة الجميلة تتحدث ، والأصوات الرخيمة تجلجل ، والمطارحات الكلامية العذبة تقرب مسافة الخلف بين الفكر والقلب ، بين

الروح والجسد ، بين الرجل والمرأة .. فهبت وذهل ، وتولاه على الرغم منه اضطراب عميق شابته عوامل اللوعة والحسرة والاسي ..

وأحس نفسه موضع شفقة وسخرية ونفور النساء جميعا ، فاهتاجت كبرياؤه ، وحز الكمد في صدره ..

وضاعف ألمه أن زوجته كانت سعيدة .. سعيدة بحبها ، وسعيدة بفنها ، وسعيدة بصمتها الهادئ الواثق المطمئن . بشعر انها تعيش من أجل غاية مزدوجة هى الحب والفن .. وانه هو ، وقد أخمدت فيه إلقظة المريرة شعلة الحب ، أصبح يعيش بدون غاية .. أشبه بانسان يتخبط في صحراء مقفرة ، ويبحث عن واحة ظليلة خضراء على غير جدوى .. وشرع يتمثل الواحة في أخيلة غامضة مبهمة .. ثم بدأ يضفي عليها طائفة من الصور النابضة الحية . ثم تخير في النهاية صورة جميلة معينة ، ومثل فيها كل شئ : الواحة الخضراء ، والأمل الباسم ، والعزاء المنقذ ، والتفاهم اللفظي والفكرى والنفسي العميق الذى كان قد خيل إله في بدء ازواجه أن في مقدوره التضحية به والاستغناء عنه ...

وكانت تلك الصورة التى جمع فيها كل ما ينقصه صورة امرأة .. امرأة من صديقات زوجته تدعى روزين.. أرمله حرة لعوب ، طلقة اللسان ، مرحة النفس ، بديعة الحسن سلابة خلابة ، يزخر بدنها الغض ، وحديثها الفياض ، بحياة دافقة

هام شارل حبا بالارملة .. راعه منها اتقاد حيويتها الناضرة ، وسحر

حديثها الشائق ، وجاذبية بدنها المليء الوطيد ، فرأى فيها رمز الواقع ورأى في امرأته رمز الوهم والخيال . فتعلق بالواقع المختلج المغرى ، وراح يغافل زوجته الصماء وتصل بالارملة ويطارحها الهوى

ولم تكترث هيلدا أول الامر لهذه العلاقة ، واعتبرتها محض صداقة بريئة عابرة . ولكن شارل كان يخدعها ويلتقى بروزين .. وروزين كانت تضللها فتزعم انها ستقتران بابن عملها ، في حين انها كانت قد أصبحت خليلة شارل . ومع ذلك فقد أبت هيلدا أن تصدق .. هالها أن تصدق .. أعجزها حبها وإيمانها عن تصور الخديعة والشر في شخص زوجها وحبيبها . فراجعت نفسها ، واستنكرت ظنها ، ثم حاولت أن تنتبه ، وحاولت أن تفهم ، وحاولت أن تسمع وترى ..

أرادت أن تسمع لتتأكد ، وأن ترى لتستوثق ، ولكن الصمم كان يقهرها ، ويقظة زوجها المشبعة بالحذر والمكر والدهاء كانت تفسد عليها تدبيرها ..

وكانت تلمح في العاشقين نراتهما المريبة ، ولكنها كانت لا تستطيع أن تسمع أو تفهم أحاديثهما الخافتة المتقطعة المملوءة بالاسرار.. فكانت تفقد صبرها ، وتفقد وعيها وتسرع إلى مخدعها ، تائهة ملتائة ، وتظل تبكي بكاء حارا متواصلا ..

وأبت عليها كبرياؤها أن تصارح زوجها بشئ لم تتأكد من وقوعه .. فزادها التحفظ جهامة ، وزادتها الجهامة صمتا ، وزادها الصمت اعتزالا ،

فتضاعف نفور زوجها منها وتعلقه بروزين ..

عندئذ أحست هيلدا أن حياتها كلها ستفلت منها لانها ليست انسانا وليست امرأة .. فارادت أن تكون امرأة ، وأن تكون انثى وأن تكون قبل كل شئ مخلوقة سليمة كاملة لتستطيع أن تسمع وتفهم وتكافح وتنتصر .. فماذا فعلت ؟.. استأذنت زوجها وتركت الحبيبين في بودابست ، ثم باعت بعض لوحاتها وجمعت مبلغا كبيرا من المال وسافرت إلى باريس لعرض نفسها على مشاهير أطبائها . وكانت قد قامت في حداثتها بمثل هذه الرحلة إلى برلين عبثا ، فأرادت هذه المرة أن تجرب حظها في باريس عسي أن توفق الى عالم نابغ يعالجها وينقذها ..

وانفقت من مالها عن سعة ، وظلت تنتقل من طبيب إلى طبيب حتى هداها البعض إلى نطاسي عبقرى ، تفوق تفوقا خارقا في معالجة أمراض الاذن والحنجرة .. فاستشارته ففحصها ، وأكد أنه لو أجرى لها عملية بسيطة ففي وسعه أن يرد إلىها سمعها

ولم تتردد هيلدا ودخلت المستشفي ..

وبعد انقضاء ثلاثة أيام على أجراء العملية ، ثلاثة أيام فقط .. نزع الطبيب الاربطة عن رأسها ، واتل قطعة القطن التى قد دسها في اذنها ، فارتعشت هيلدا من قمة رأسها إلى اخمص قدميها ، وأحست وهى شارددة وقع المعجزة .. أحست لأول مرة منذ أعوام ، أن الحياة تضج حولها ، وأن اصداءها القريبة والبعيدة تتجاوب في صميم سمعها وكيانها ..

وذهلت وكادت تجن .. كادت تجن من فرط الفرح ، فاكبت على يد الطبيب تلثمها ، وانفجرت من عينيها الدموع ..

ولم تكد تشفي حتى تبدلت .. تبدلت في مثل خطف البرق .. استيقظت فيها المرأة والانثي ، فاطمأن قلبها ، وأشتد عزمها ، واتقدت أرادتها .. فكرت راجعة إلى بودابست وملء نفسها الامل في الحياة والنصر..

ولم تنبئ زوجها بموعد وصولها ، ودخلت بيتها فجأة وعلى غير انتظار ..

وكانت قد تجملت وتبرجت ، وارتدت ثوبا جديدا شائقا ، وزينت رأسها بزهرة حمراء ، وأرسلت شعرها المموج في زهو رائع كزهو العذارى .. فلما بوغت زوجها برؤيتها أجفل وتراجع وبهت .. لم يعرفها .. لم يصدق أنها هى امرأته .. فابتسمت له ، فعانقها ، فأرادت أن تقبله . وفي تلك اللحظة طرقت سمعها حركة خفيفة منبعثة من الحجرة المجاورة ، فنحت عنها زوجها ، وعدت صوب الحجرة .. فأبصرت غريمتها روزين ، تهب واقفة وتصيح : "أنت ! " ثم تخف لاستقبالها ، مأخوذة مشدوهة لا تكاد تصدق في الاخرى أن هذه الغادرة الساحرة الجمال هى الفنانه المريضة البائسة هيلدا ..

وعضت هيلدا على شفتيها ، وأدركت كل شئ . وفجأة في مثل هبوب الريح وانقضاض الصاعقة ، أرسلت ضحكة هادرة مدوية ، ثم

صاحت بغريمتها وهى تصافحها : نعم أنا ! لقد شقيت !. الا تهنئينى؟ . لقد شقيت واصبحت أسمع وأفهم كل شئ .. فحذار..

وأردفت مقهقهة : كنت أعتمد عليك في تسلية زوجى أثناء غيابى .. فتشكرا .. شكرا لك .. يا روزين ! ..

فذهل شارل . وجحظت عيناه ، واختلجت روزين اختلاجا عنيفا وصمتت

***

وحدث ما لم يمكن في حسبان روزين .. تبدلت اخلاق شارل فجأة ، وانحرفت ميوله واهواؤه وارتدت الى ينبوعها الاول..

أخذ بزوجته .. رأى فيها امرأة جديدة .. امرأة كاملة .. امرأة تجمع بين روعة الحسن ، وجلال الفن ، وطلاقة اللسان . فسحره تجددها ، وفتنه انبعاثها ، وزاد في أعجابه وافتنانه أنها لم تقبل عليه ، بل أعرضت عنه.. قابلت مظاهر وده الطارئ بفتور أبى ساخر حقره في عينها ، واذله في عين نفسه ، وأحاله بين عشية وضحاها من سيد إلى عبد ..

وكبر عليه أن تتمنع هيلدا وتتدلل ، فأغلظ في معاملتها ، فلم تكترث .. فراح يتوسل إليها ، فهزأت به ، فلم يجد وسيلة لاسترضائها الا التضحية بروزين ومحاولة اقصائها عنه شيئا فشيئا .. وكانت روزين تحبه ، بل كانت تعبده ، فلما أبصرته يصد عنها ، ويعود الى زوجته ، اضطرم

حقدها ، واستعرت غيرتها ، واستبدت بها فكرة المحافظة على حبيبها أو الثأر منه والتنكيل به

على أن شارل لم يستطع أن ينبذ روزين .. كان الماضي يوثر فيه ، وكان الحاضر أيضا يجذبه . فظل متأرجحا بين المرأتين ، يصبو إلى الخليلة والزوجة ..

هذا التردد المنكر ، هذا الضعف الشائن الوضيع أثار ثائرة هيلدا .. فأمعنت في أعراضها عنه ، كما أثار ثائرة روزين فأمعنت في التعلق به ، والحقد على امرأته ، ومحاولة الكيد لها ، وانتزاع زوجها منها ..

وعندئذ أحست هيلدا أن صراعا هائلا سينشب لا محالة بينها وبين غريمتها .. فتهيأت للكفاح في جرأة ملؤها الكبر والتحدى وطلبت الطلاق.. طلبت الطلاق في صراحة وعزم ، فلما رفض شارل طلبها ، مدفوعا بقوة حبه الجديد لها وعنف رغبته فيها ، خيرته بين أن يطلقها أو ينزل على أرادتها فيسافر برفقها إلى باريس مودعا خليلته روزين إلى الابد..

واضطرب شارل وأعجزه حبه لروزين عن التسليم بهذا الحل .. فاحتقرته هيلدا ، وأبغضته بقدر ما كانت تحبه .. أبغضته فختم البغض على قلبها ، وجردها حتى من انسانيتها ، وزين لها فكرة الانتقام . فاستجمعت قواها وهجرت بيتها .. هجرت بيتها وزوجها ولاذت بمرسمها ، ثم أغلقت عليها بابه ، وحبست نفسها فيه ، وانكبت على العمل الفنى ، تنشد في وحدتها العزاء والثأر معا ..

وكانت تعلم ان هذا التصرف لن يدفع شارل إلى طلاقها بل سيضاعف رغبته فيها .. فحدث ما كانت تتوقع . ادرك زوجها ان لابد له من تضحية عشيقته ليظفر بامرأته فجاهد عاطفته ، وحزم امره ، وكتب إلى روزين ينبئها بأنه قد قطع كل صلة له بها ..

واقتحم مرسم زوجته ، متهلل الاسارير ، وصارحها بما فعل .. فبتسمت له ، ثم راغت منه ، ثم منحته قبلة ، قبلة واحدة فقط . فلما طمع في المزيد ، تشبثت عامدة بموقفها ، وأبت أن تكون له ألا بعد أن تمتحنه ، وتستوثق من وفائه وتتأكد على مضي الايام أنه قد أصبح بالفعل لها وحدها ..

وكان تردده الشائن بينها وبين خليلته ، قد احنقها وأيأسها وجفف عواطفها ، وجردها من الثقة في زوجها ، وأشعرها أن الحياة الهانئة السعيدة باتت مستحيلة معه .. فأرادت هيلدا أن تعذبه لا أن تمتحنه ، أن تتحرر منه لا أن تختبره ، أن تعاقبه وتثأر منه لا أن تعود إلبه

ومضت تقابل حبه بالزراية والاعراض ، وتستخدم دهاءها في الاقبال علية تارة والصد عنه أخرى .. فعيل صبره ، وثارت كبرياؤه ، وآلى على نفسه أن ينكل بها ما استطاع ، وأن يعود فيوثق صلاته بروزين ..

وما كاد يفعل .. ما كاد يتصل بخليلته حتى فوجئ بحدث جديد ، رده على أعقابه ، ممزق النفس ، مهتوك الكرامة ذليلا مقهورا ..

طردته روزين شر طرد ، وصارحته في غلظة ملؤها الاحتقار ، وفي

قسوة ملؤها الحقد ، انها قد هامت حبا برجل سواه ، وأن هذا الرجل سيتزوجها .. وانها هى التى سترحل عن بودابست في صحبة حبيبها وقرينها الوفي

وتاه فكر شارل اختبل عقله .. أحسن أنه يوشك أن يفقد الزوجة والعشيقة معا .. أدرك أن امرأته تبغضه ، وأن بغضها متآصل عميق رهيب، وأنها لن تغفر له ذنبه ألا بعد أشهر أو سنين ، وانه في خلال هذه الفترة محتاج الى امرأة ، محتاج الى روزين .. فعزت عليه نفسه ، وعز عليه أن يعيش في عزلة ، وفراغ ، وهوان .. فكر راجعا الى خليلته ، وطفق يسستعطفها ويتوسل إلىها .. ولكنها انتهزت فرصة ضعفه ، وأذلته وخيرته هى أيضا بين أن يطلق امرأته ويتزوجها ، أو يذهب على ألا يعود .. وكان مايزال متعلقا بزوجته ، فهاله أن ينفصل عنها ، وهاله أن ينفصل عن خليلته . فعاد يلتمس الى روزين أن تشفق عليه وترحمه .. بيد انها صدت عنه ، وعيرته بضعفه . فتطاول عليها وهددها . فسخرت منه وطردته . فثأر ثائره وجن جنونه . وفي نوبة من نوبات الغضب ، انهال عليها ضربا ، فلم تستضعف أمامه بل خدشته بأظافرها ، وعضته بأسنانها .. ففقد وعيه، وانتزع مسمسه ، وأطلق النار عليها وهو لا يدرى كيف قتل ولماذا قتل !.

وكان بيت روزين في ضاحية نائية .. وكان في تلك الليلة خإلىا الا منها ومن عشيقها ، فلما ارتكب شارل الجريمة لم ينتبه أحد من وقوعها . فأسرع شارل والقى المسدس بجوار الجثة ، وغلق الابواب ، ثم انسل تحت جنح الظلام واستقل القطار الى المدينة ، ويمم وجهه شطر منزله ..

وكانت هيلدا وقد فرغت من رسم لوحة من لوحاتها الجديدة ، مستلقية على فراشها ، عاقدة أصابعها تحت رأسها ، مستغرقه في شبه سبات فكرى وجثمانى تجدد به قواها وتنعش أعصابها . وفجأة فتح الباب في عنف متداعى البدن ، وارتمي على مقعد وهو يلهث . ثم نهض .. لم لوح بذراعيه كأعمى ، ثم أرسل نفسها مستطيلا وارتمي على المقعد ثانية وغمغم :

– لقد قتلتها ! .. قتلتها !..

فوثبت به هيلدا وصاحت :

– من؟ .. قتلت من؟ ..

فهتف :

– قتلت روزين ! ..

لم يرنى أحد ! .. لا يمكن أن يلقى على الشبهة أحد !! .. المسدس هناك ! .. بجوارها ! .. بجوار جثتها .. سيقولون ولا شك انها انتحرت !..

وأردف صارخا :

– قتلتها من أجلك ! .. قتلتها لأظفر على الاقل بك ! . فهل انت مطمئنة الآن ؟.. هل أنت سعيدة ؟ .. هل صفحت عنى وغفرت لى ؟ ..

فحدقت إليه هيلدا ثابتا ، تحديقا مروعا ، ثم ضمت أهدابها ،

وعضت على شفتيها ، وقالت في صوت غائر اجش :

– لماذا تركت المسدس هناك؟

فتطلع إلىها ، ولم يفهم .. فأردفت هادرة وهى ماتنفك تحدق إلىه :

– لو أن المسدسس كان معك لقلت لك اقتلنى .. اقتلنى أنا ايضا .. لأنى .. لأانى لا أحبك ولا أريدك ، ومن المحال أن أكون في يوم من الايام لك ! ..

فنظر إلىها شارل كمعتوه وصاح :

– هيلدا .. أنا أحبك .. ومن أجلك .. من أجلك أنت أصبحت قاتلا ! ..

فصرخت :

– لو ان روزين قبلت العودة إلىك لما قتلتها ! انت رجل نذل .. اتسمع ! .. وما جريمتك الا الدليل البالغ على نذالتك ! .. فاقتلنى أنا ايضا . اخنقنى اذا شئت ! .. ولكنى لن أحبك وأن أصفح عنك !

فانهارت قوى شارل ، وجثا عند قدمى امرأته ، وطفق يقبل يديها ويردد وهو يجأر ويبكي :

– لا .. لا تتخلى عنى ! .. لا تنبذينى ! .. ضميرى يبكتنى ! ..

فلمعت عيناها لمعانا حادا ، وقالت وهى تبتسم نصف ابتسامه هانئة قريرة وتستمرئ في نشوة لذة انتقامها :

– لن أعود إلىك أبدا ! .. أبدا ! ..

فترنح واوشك أن يسقط . ولكنه تمالك ، ودنا من امرأته ، وتفرس فيها والحنق يغلى في صدره ، ثم أمسك بذراعها ، وانقض عليها . فرفعت رأسها الشامخ ولم تقاوم بل أسلمت له عنقها فمد أصابعه التائهة المتشنجة وحاول .. حاول أن يقتلها .. أن يخنقها .. ولكنه عندما أبصرها ضعيفة وقوية ، مستسلمة وثابتة ، جميلة في حقدها وفي شجاعتها وفي عدم اكتراثها جمالا رائها بفتن الالباب ، انحنى عليها ، وضمها إلى صدره في جنون فصاحت :

– لا تمسسنى والا قتلت نفسي قبل أن تلوثنى أيضا شفتاك ! ..

واندفعت صوب النافذة ففتحتها ، ثم اعتلت أحد المقاعد وأردفت وهو ترعد :

– لو تقدمت خطوة واحدة فسألقى بنفسي من النافذة حالا ! .. لم أكون لك أبدا ! .. أفهمت الآن ؟..

وعندئذ ، عندئذ فقط أدرك شارل ان الصمم الذى كان قد أصاب امرأته في أذنيها ، تبدل الآن وتحول فأصابها في قلبها . فارتعدت فرائضه وتراجع نحو الباب ..

وقبل أن يخرج رفع بصره إلى زوجته ، وتأملها .. تأملها طويلا كأنه يود أن يطوق شبابها وجمالها ويملأ بهما قلبه وخياله في نظرة ، ثم حنى رأسه وتمتم :

– الوداع يا هيلدا ! ..

وأسرع من فوره إلى أول مخفر صادفه ، وسلم نفسه للبوليس ..

أما هيلدا التى كانت تحبه ، والتى لم تعرف في حياتها رجلا سواه ، فقد شعرت بعد أن حكم عليه بالاعدام أن تعيش بدونه .. فارتمت في غمرة فنها ، وشرعت ترسم لوحة عظيمة تمثل فيها مأساة حياتها . وبعد أن أتمت عملها ، وأخرجت للناس صورة " جحيم الحب المحرم " التى خلدتها ، ودخلت بيتها ذات مساءً ، وأوصدت أبوابه عليها ، ثم قطفت جميع أزهار حديقتها ، ونشرتها على سريرها ، ونامت الليل كله بين الازهار . فلما أصبح الصباح وجدوها مختنقة في فراشها ، وبالقرب منها صورة لشارل كانت قد رسمتها له يوم أن أحبها

وهكذا انتهت حياة هيلدا كامف ، المخلوقة العجيبة النابغة التى كان الصمم قد وهبها للفن ، فلما شفيت منه وأصبحت امرأة قتلها الحب وقتلتها الحياة ! ..

الحب في حياة الراقصة العالمية إليزادورا دنكان

كان ذلك في باريس قبيل نشوب الحرب العالمية الاول ، في ليلة من ليالى عيد الميلاد ، وفي منزل روائى وكاتب مسرحي..

كان هذا الروائي قد اقام حفلة شائقة دعا إليها طائفة كبيرة من اصدقائه معظمهم من الادباء والشعراء والرسامين والممثلين . وكان زينة الحفلة وبهجتها الراقصة الذائعة الصيت " ايزادورا دنكان " التى خليت الباب الباريسيين في ذلك العهد برقصاتها الرائعة المستمدة من روح الرقص عند الاغريق ، ونزعته الى تمثيل مختلف ظواهر الطبيعة ، وشتى انفعالات القلب البشرى في حركات دقيقة وبسيطة وحرة ، ويقصد بها تمجيد الحياة سواء أكانت رحيمة أم قاسية ، سعيدة أم شقية ...

لم تكن ايزادورا امرأة جميلة . ولكنها كانت امرأة ساحرة ، في نحو الخامسة والاربعين من عمرها ، ذات عينين واسعتين ملتهبتين ، وجبهة عإلية ناصعة ، وانف صغير ، وفم عريض ، وانقاد في الحركة والاشارة والكلام ، يقترن بليونة عجيبة في الاعضاء وانسجام خارق في تقاطيع البدن ..

وكانت عبارات الثناء تنهال عليها من كل صوب ، وآيات الاعجاب

تطرح عند قدميها أشبه بالقرابين ، وزفرات الحب والهيام تتصاعد إلىها من صدور رجال الادب والفن ، فال تظفر منها بغير ابتسامة لطيفة ، أو رنوة وقيقة ، أو عبارة تفيض بالمجاملة دون أن يزايلها طابع الكبر المتأدب والتحفيظ الحريص

ودارت على المدعوين كؤوس الشراب ، ولعبت برؤوسهم نشوة الخمر .. فشرعوا يغنون ويرقصون ، وايزادورا تشاركهم في لهوهم ومرحهم ، فاترة ساهمة حالمة ، تفشي وجهها سحابة خفيفة من الكآبة والضجر ، تحاول أن تخفيها بابتسامتها المشرقة ، وضحكتها الرنانة التى لا تكاد تنطلق من صدرها حتى تنفرط كعقد من البللور .. وفجأة ، وفي نحو الساعة الثانية صباحا ، أعلن خادم الدار مقدم الشاعر الروسي العبقرى " سرجي أيسينين " . فهتف المدعوون وهللوا ، وأحاطوا بالشاعر الروسي ورحبوا به وأبوا إلا أن يشرب بعد ايزادورا من نفس كأسها ، مبالغة في تكريمه ، وأشراكا للشخصيتين العظيمتن في أعجاب واحد وصداقة واحدة ومجد واحد

وكانت هذه هى أول مرة يلتقى فيها الشاعر بالراقصة ، وأول مرة تقع فيها عين الراقصة على محيا الشاعر ..

ورمقته ايزادورا بنظرة .. فراعها منه جماله الشاحب الحزين .. فشخصت إلىه فترة ، وتولتها رعدة خوف طارئ عقلت لسانها ، وأشاعت في نفسها احساسا غريبا بالحيرة والوجوم ..

وكان الشاعر فتى في نحو الثانية والعشرين ، مديد القامة أهيف القد، ينعقد شعره الاصفر حول جبينه كأكليل من ذهب ، وتضطرم في عينيه الزرقاوين شعلة النبوغ ، وتستعر في خديه الضامرين الغائرين شبه نار تدل أبلغ الدلالة على أن الشاب يشكو مرضا عضالا يبرح به ، ويثير حسرته على نفسه ، وهو يضاعف جماله بهاء وفتنة

وكان وديعا ، رقيقا ، عذب الروح ، حلو الحديث ، جم الفكاهة ، يخفي آلامه العميقة في ضوء ابتسامته ، ويخفي حسرته الدفينة في أطواء حلمه ، ويخفي شبح الموت الذى لا يفتأ يطارده ، في تصورات وتأملات تساوره وهو بين الناس ، فيضم عليها عقله وروحه ، كي يرسلها في وحدته قصائد تختلج بحب الصحة وحب القوة وحب السعادة وحب الحياة

ولمحته ايزادورا يسعل سعالا جافا ، يزعزع صدره ، ويهز كيانه من الاعماق .. فأيقنت أنه مصدور فلم تنفر منه ، بل على النقيض اشفقت عليه ورثت لحاله ، وأحست كأن المرض يخرج به عن الدنيا ، ويجعل منه مخلوقا رائعا في جماله ، شاذا في مظهره وروحه ، يلتقى فيه الضعف بالقوة ، والشباب بالالم ، والمجد بالحسرة ، والحب الموت ..

وكانت امرأة ذات قلب عامر بأسمي العواطف وانبلها .. قلب يحب أح يحنو ، ويحب أن يخلص ، ويحب أن يبذل ويضحي .. فعشقت الشاعر عشقا مازجت سداه الرغبة الحسية الطبيعية ، ولحمته العطف والرعاية والحنان وانكار الذات ..

وفتن الشاعر منها سحر نضوجها ، وعمق طبيعتها ، ووفرة ثقافتها ، وتلك الحيوية المتقدة الكامنة في أعضائها اللينة المتواثبة ، وفي عينيها السوداوين الملتهبتين .. فتقترب إليها ، ولاطفها ، وانصرف عن الجميع وأقبل عليها ، وطفق يحدثها في غمغمة طويلة عذبة حديثا مبتكرا خالبا ، مفعما الصور الباهرة ، والاخيلة النادرة ، والاستعارات والمجازات العجيبة التى تبدعها العبقرية الشعرية في لحظة .. فاشتد انجذاب المرأة إليه ، واشتد ولعها الطارئ به ، وراحت تتأمله وهى تسبح في شبه غيبوبة وتفكر في رقصة جديدة تستمدها من وحيه ، وتستلهمها من عذابه ، وتصب فيها عصارة هذا الحب الغاشم الذى عصف بها ، بالصاعقه فيحرقها

ولم يكد يطلع الفجر ، وتنتهى الحفلة ، حتى كان الشاعر والراقصة قد تآلفا وارتبطا ، وامتزجت منهما المطامع والآمال والأحلام ...

وقدم إليها ذراعه ، فرانقته وهى ترتعش .. فخرج بها شامخا ومعتزا ، وتجول معها في الشوارع ، وشاهد في صحبتها ضوء البحر الارجوانى ، وهو يتبدد شيئا فشيئا ، ويطلق من صدره المتمزق على يده ، ودعته لزيارتها في يوم من الاسبوع التالى .. فلم يصدق سمعه ، وافقده الفرح صوابه.. فانحنى وقبل يدها ، ثم خشي أن تخونه قواه فيظفر الدمع من عينيه ، فقبل إليد الغإلة مرة ثانية ، ثم أسرع واستدار ، وانطلق يمشي في الشوارع على غير هدى ..

***

وأحرزت الرقصه الجديدة التى ابتدعتها ايزادورا من وحي حبها وأسميتها " الخريف الناضر " نجاحا منقطع النظير . فازدادت هياما بشاعرها ، ولكنها برغم ثقتها المطلقة فيه ، ويقينها الراسخ من صدق حبه ، أرادت أن تمتحنه أيضا قبل أن تهبه البقية الباقية من حياتها ، فأقصته فترة وهى تدنيه .. فازداد الشاعر تعلقا بها ، ورغبته فيها ، ثم اهتاجت عواطفه في يوم من الايام ، فكتب إلىها هذه الرسالة الرائعة الشبيهة بقصيدة من الشعر الخالص

" .. انا لم أعرفك الا منذ شهر واحد .. ومع ذلك فأنا أحس انى قد ألتقيت بك منذ سنين ، وعشت معك قبل مولدك ، واتصلت بروحك في دنيا غير هذه الدنيا ، انكون حقا قد تعارفنا في كوكب غير هذا .. أم هو الحب الساحر خلاق المعجزات يولد في نفس المحب أحلاما لا يمت بصلة الى حقيقة الواقع والى منطق الحياة ؟ .. على انى اهزأ بالمنطق وأسخر بالواقع ، ولا أومن الا بصوت القلب .. وقلبى لا يفتأ يقول لى أنك كنت حبيبتى منذ الابد ، وانى عرفتك في أول يوم من ايام الحياة ، ورأيتك في نفس اللحظة التى نفخ الله فيها من روحه ، فدبت الحركة في الدنيا واستحالت فوضاها الى نظام وجمال ! .. هو داك .. قلد اصطفتك نفسي منذ بدء الخليقة ، ووجد فيك خيالى مثل المرأة الاعلى . ولقد احببتك لأنك امرأة لا كبرياء في نفسها ، ولا خبث في عقلها ، ولا دهاء في قلبها ، ولا خلاعة في أخلاقها .. بل رقة كرقة الورد ، ودمائة كدمائة الماء ، وعذوبة كعذوبة أروع الشعر ، وسذاجة كسذاجة الاطفال أحباب الملائكة والله ! .. فهبينى القوة انا المريض .. قوة الفكر الثاقب ، والقلب الطيب،

والروح الحافزة . هذه القوة التى أراها ممثلة فيك ، مستقرة في أطواء نفسك استقرار اللآلئ النادرة في أعماق بحر عظيم .. فتعالى الى وطهرى خلقى ونفسي .. اذ في مقدور المرأة أن ترتكب جريمة ، كما في مقدورها أن تصنع معجزة .. في مقدورها أن تقتل الرجل ، كما في مقدورها أن تخلق الرجل ، فاصنعى المعجزة وابعثينى .. ابعثينى في ظل روحك الطاهرة واخلقينى ، فقد كنت حتى الساعه ميتا مكفنا في غلائل ضعفي ومرضي ، أترقب عبثا يوم النشر ولحظة الخلود !.. وانى في انتظار ردك يا حبيبتى ، انحنى في تجلة وخشوع ، فكرى وقلبى وروحي مدى الحياة! .."

وكانت هذه الرسالة هى عروة هذا الغرام الوثقى.. فاندمج العاشقان بالروح والجسد ، وغادرا باريس وراحا ينشدان الحب في وكر اعدته ايزادورا في ضاحية ويفية نائية ..

وهناك بعيدا عن العالم ، وفي هداة الطبيعة الكبرى ، وبين الحقول الشاسعة والمروج الخضراء ، أمضي الحبيبان ثلاثة اسابيع كانت نعمة من الصحة والقوة أسبغها الحب على الشاعر ، وفيضا مع الفرح والبهجة أغدقها على الراقصة المفتونة التى لم تعد تذكر انها في مهبط العمر وفي عامها الخامس والاربعين ..

ونسيت ايزادورا مفاخر الشهرة والمجد ، واضواء المسرح ، وهتاف الجماهير ، ولم تعد ترقص للناس ، بل لحبيبها . فكانت تغافله ، وتدخل عليه فجأة وقد تجملت بابدع اثوابها التمثيلية ، ثم تأخذ في الرقص امامه ، وهو جالس يرقبها ، مشرئب العنق إلىها ، مستهبطا وحيه من روعة التعبير

الحي المائل في حركاتها .. حتى اذا ما سكنت وهدأ وقع خطاها ، عكف هو على نظم شعره ، ممتلئ النفس بها ، مفعم الروح بالهامها ، منشيا بقوته الخالقة التى استمدها منها ، والتى تمثلت في قصائد شائقة ، كانت تذهله وتبهره كأنه ليس هو صانعها ومبدعها ..

وهكذا اقترن الفن بالحب ، واضرم الحب شعلة الفن ، فاخرج الشاعر ديوانه الخالد " نبع الحياة " الذى استفاضت شهرته بين يوم وليلة . ولكن القدر الواقف للناس بالمرصاد ابى الا أن يكشف عن وجهه الساخر ، ويمد يده الغادرة كي يصب السم في كأس الحبيبين ..

تحرك الداء الخبيث الذى كان قد تقلص أول الامر في غمرة الصحة الزائفة التى الهبها الحب والفرح ، وعاد فاستبد بالشاعر الشاب . فضمر وجهه وشحب لونه وساوره الحمي ، وانتابته نوبات السعال الشديدة العنيدة متعاقبة لا ترحم

وفي ذات صباح ، ابصرته ايزادورا وهو يبصق الدم في منديله .. فاقشعر بدنها وارتعدت فرائصها . لم تستطع ان تتصور انها يمكن أن تفقده، فأبت أن تكون له حرصا على صحته .. فعادت به الى باريس ، وارغمته على ملازمة الفراش ، وآالت على نفسها أن تودع الدنيا وتنقطع لخدمته ، وان تجاهد وتبذل المستحيل كي ترد عنه عادية المرض وتنقذه ..

وكانت لا تفارقه لحظة واحدة .. كانت تسفعه بالدواء في الميقات ، وترقب سير حرارته ، وتعنى بتغذيته ، وتغسل بيديها مناديله الملطخة ييقع

الدم ، وتسهر عليه الليل بطوله دون تبرم او كلل ..

وراءه صدق حبها وعظيم أخلاصها وعمق تضحيتها .. فعاونها بصبره وامتنانه وطاعته ، وبذل هو الآخر جهد المستميت كي يقاوم المرض من أجلها ..

وشيئا فشيئا ، وعلى مر الزمن دبت فيه وقدة النشاط والصحة ، وتماثل للشفاء .. فجنت المرأة فرحا ولم تعد تسعها الدنيا .. أحسن أن حبها قد انتزع الحياة من بين برائن الموت ، ورد الى حبيبها نعمة العافية والقوة ومتعة الحركة والانطلاق .. فأيقنت انها انتصرت ، وان أيام الهناء قد عادت ، وان في وسعها بعد جهادها الطويل ان تطمئن وتسعد .. بيد أن القدر —القدر نفسه — القدر الذى كان قد استخفي فترة ليضحك ، عاد فكسف عن وجهه الساخر ، وطاب له ان يطعن ايزادورا في شغاف قلبها ..

حدث أن فتار فقيرة من هواة فن الرقص تدعى "بلانش فلورى " جاءت لزيارة الراقصة مساء يوم ، وطلبت إلىها أن تدربها على بعض فنون الرقص التى استحدثتها ايزادورا ..

وكانت " بلانش " في نحو العشرين من عمرها ، ذات وجه ابيض مشرق مشرب بالسمرة ، وعينين زرقاوين لعوبين ، وخدين شهيين موردين، وابتسامه ناضرة ، واعضاء وطيدة / وبدن غض .. وكانت ضحاكة صخابة ، يمشي المرح في ركابها ، وتضفي عليها الفتوة المعتزة حلة ساحرة من جمال ..

كانت هذه الفتاة هى الشباب ، واما ايزادورا فكانت الكهولة .. كانت بلانش هى الربيع بسمائه الساطعة وأزهاره إليانعة المسكرة ، وعصارته البكر الزاخرة بالحياة الخصبة والامل العريض . واما ايزادورا فكانت الخريف بسمائه الغائمة ، وازهاره الذابلة ، واورقه إليابسه ، وانكماشه المتعب الحائر القلق الحزين

واستجاب الشباب لنداء الشباب، واحس الشاعر امامها ، ويجزع لمرآها، ويصد عنها ثم يسعى إليها ، ويفر منها كي يتعقبها عامدا وطاردها. احس ان صورتها تحل في خياله رويدا رويدا محل تلك الصورة التى كان يعتقد انه لن يقدس ابدا غيرها .. فملكه الذعر ، وكافح الاغراء جهده . حاول أن يقاوم ، أن يبتعد ، أن يكون مستقيما وصريحا ، وأن يكاشف ايزادورا بالعاطفة التى استولت عليه ، ويلتمس من المرأة ان تطرد الفتاة الدخيلة وتنقذه منها .. ولكن طبيعته كانت اقوى من ارادته ، فلم يستطع .. لم يستطع وهو الشاعر ان ينقطع لحب امرأة واحده .. أن يمثل الدنيا كلها في امرأة واحدة .. ان يجمع الجمال ويحصره كله في امرأة واحدة . كان لابد له أن يجدد وحيه ويجدد خياله ويعب في نبع الشباب ليحس بالقوة التى ارتدت إليه ، وبالشباب الذى عاد يضطرم في عروقه . فتاقت نفسه الى افق آخر ، وعالم آخر وفتنه طريفة لا عهد له بها

على انه كان يحب ايزادورا ويتعذب .. لم ينس اخلاصها ، لم ينس تضحياتها ، لم ينس انه مدين لها بحياته ، ولكن هذا الدين بالذات ، كان يشعره بجحوده فيثيره على نفسه ، ويضاعف حبه للفتاة الساحر ، تأججا واشتعالا .. بيد انه لم يجسر على مصارحة الفتاة بأى شئ .. كان يحب

ويكتم ، ويتعذب ويصمت ، ويهم ويحجم ، ويشرد ويتأمل .. كان يشفق على ايزادورا ، بل كان يتمزق لتصور عذابها ، ويتمزق لشعوره بأنه هو الذى سيعذبها ، وهو الذى سيشقيها ، وهو الذى سيقضي في نفسها على آخر حب وآخر عزاء .. ومع ذلك فقد قسا قلبه ، وغلظت عواطفه ، وتفاقمت بغتة انانيته .. فبدأ يفكر في الفتاة فقط وفي الاقدام على طلب يدها ، وفي متعو الزواج بها ، وفي انتهاز فرصة تمكنه من التحرر من ايزادورا مع الابقاء على صداقتها في جو لا تشوبه الحسرة ولا يكتنفه العذاب ..

واما المرأة المسكينة فقد تنبهت .. تنبهت ولاحظت وادركت كل شئ..

شاهدت نية العدر تبرق في عينى حبيبها .. شاهدت روح الخيانة تستأثر بعقله ، وتذهب لبله ، وتدفعه الى نبذها في غير ما وازع من عاطفة أو ضمير . شاهدت الرجل الذى منحته الحياة ، يصدف عنها ، ويقدم هذه الحياة هبة لغيرها ، في قسوة وحشية وعدم اكتراث مروع ..

وهالها ختام غرامها الفاجع .. عز عليها ان ينهار صرح احلامها في أقل من عامين .. كبر عليها ان يقابل احسانها بالاساءة ، وان تجزى تضحياتها باللوم ونكران الجميل . فتقطع فؤادها لوعة واسي ، واسودت الدنيا في عينيها ، وكادت تختبل وتفقد رشدها لشعورها بانها كهلة ، وانها غير جميلة ، وان الشباب اقوى منها ، وان أعصاره الجارف يوشك ان يكتسحها اكتساحا ويسحقها ..

يبد ان حبها كان عظيما .. كان حبها اعمق من انانيتها وغرامها اعنف من حقدها ، واخلاصها اشد من غيرتها .. فخنقت الالم في صدرها، واخمدت ما استطاعت ثوارة غضبها ، ولم تطرد الفتاة ، بل تركت حبيبها يستمتع وتهنأ بحبه الطارئ الجديد ..

كانت تخشي عليه الانفعالات النفسية العنيفة .. كانت تخاف عودة المرض إله لو واجهته بثورتها وسخطها . كانت تود ان تسعده ولو على انقاض حبها ، ولو على اطلال نفسها . أما هو فكان منصرفا عنها ، يجلس الى الفتاة على مشهد منها ويحادثها ويغازلها ، ويبتسم لها وينهل من محاسنها ، غير حافل بذلك القلب الكبير الذى كان يتفطر على مقربة منه ، ويقطردما دونه ذلك الدم الذى كان يقطر بالامس من رئتى الشاعر المصدور

على أن عذاب ايزادورا لم يلبث ان ظهر وتجلى في صورة لم تدع للشك سبيلا . غاض ماء وجهها ، وانطفأ سحر عينيها ، وخبت وقدة اعضائها ، ودب فيها الهزال ، واستحالت الى هيكل يائس للحزن وإلبأس والحسرة ..وتخبط ، واصبح قلبه ميدانا لمعركة عنيفة يتقاتل فيها الماضي والحاضر ، والواجب والحب ، والانسانية والانانية

وكاد أن يرحم .. كاد ان يقطع .. كاد ان يطرد بنفسه الفتاة ويتخلص . ولكن الفتاة التى الهبت عواطفه اول الامر باصطناعها التحفظ والتجاهل والسذاجة والاعراض ، اقبلت فجأة عليه ، وبادلته حبا بحب ، واتصلت به خارج بيت ايزادورا ، ولوحت له باستعداداها للزواج منه لو

حزم امره وتشجع ، وقطع كل علاقة له بالراقصة ...

واذهل الشاعر اقبال الفتاة ، وخلبه اتصاله السرى بها . فعاوده اعجابه وولعه بازدهاؤ جمالها ، ومرح شبابها ، وفيض حيويتها .. فاستسلم لها، وعاهدها على الزواج ، ولم يجد بدا من مكاشفة ايزادورا بعزمه والانفصال النهائى منها

ورزحت المرأة تحت وقع الصدمة .. اصابها شبه مس من خبال . كفت عن الرقص واعتزلت العالم ، حبست نفسها في بيتها ، وطفقت تتجول في حجرات البيت ، مشوشة الذهن ، منهوبة العقل ، مشبوبة التصور والخيال تذكر حبيبها ، وتتمثله ، وتناجيه وتدعوه فلا يجيبها سوى الصمت يائسا مستغيثا ، وتبكي بكاء يفتت الاكباد

وكان الشاعر في غضون ذلك تائها عن نفسه مستغرقا في فرحته وامله ، منصرفا بكليته الى حبه وحلمه ، يعد معدات العرس ، ويتهيأ ليوم الزفاف . ولكن الفرحة ظلت مجرد لهفة ، والامل مجرد رغبة ، والسعادة مجرد حلم .

وقع شئ جديد أهول وافجع الف مرة مما وقع من قبل .

ظهر على مسرح المأساة رجلان، أحدهما كهل عريق في الحسب والنسب، موفور الجاه والثراء يبلغ الستين من عمره .. والاخر مصور مشهور يبلغ الاربعين ويدعى " ريتشارد " طيب القلب ، نبيل النفس ، خدعته زوجته فطلقها .. وتاق الى امأة تكون فنانة مثله في مقدورها لو

تزوجته أن تفهمه وتأسو جراحع وتصون شرفه ..

والتقت بلانش بالكهل الثرى في احدى الحفلات قبل ثلاثة اسابيع من موعد زواجها بالشاعر .. فافتن الكهل بها ، وغازلها ، واثارها من طرف خفي على خطيبها . وانطلق يحوم حولها ، ويستدرجها بماله ، ويزين لها الحياة في قربه، زاخرة بألوان من الترف والنعيم لم تحلم بها أبدا ..

اما ايزادورا فقد كان المصور معجبا غاية الاعجاب بفنها وشخصيتها.. فلما ترامي إلىه نبأ اعتكافها عقب الصدمة التى أصابتها ، ألح في طلب زيارتها .. ثم اقتحم بابها ، فأصبح هو الرجل الوحيد الذى يتردد كل يوم على دارها ، ويستفسر عن صحتها ، ويخدمها في تهافت وتهالك واخلاص، كما كانت هى بالامس تخدم وترعى الشاعر الغادر المصدور .. واستفاق الشاعر ذات يوم ، واذا بخطيبته الوفية .. خطيبته التى توشك ان تصبح زوجته ، تتنكر له فجأة ، وتصد عنه ، وتصارحه في غير ما خجل أو اسف أو تردد أنها قد عدلت عن الزواج به ، واعتزمت ان تقترن بالكهل الثرى الوجيه..

وسقط القناع عن وجه بلانش الفاتنة ، وبدت على حقيقتها .. بدت فتاة لا قلب لها .. شيطانا في زى ملك ، شتاء باردا قاحلا في زى ربيع ، نفعية وصولية طماعة ، ملؤها الختل والنفاق ، وتضرب رجلا بآخر ، متى وجدت في الرجل الجديد انسانا ، متفوقا في الجاه والعز ، في وسعه ان ينقذها من فقرها ، وينتشلها من طبقتها ، ويرفعها بماله وجاهه الى مصاف السيدات المترفات حتى ولو كن انصاف حرائر واشباه بغايا ...

والعجيب أن هذه الفتاة التى كانت في نظر الشاعر عنوان السذاجة، ورمز البراءة، ومثال الطهر والنقاء ، لم تغضب عندما رفض الكهل الثرى أن يتزوجها بل ارتضت ان تكون خليلة له ، على شرط أن يمنحها قطعة من أرضه يسجلها باسمها ، وأن يستأجر لها مسكنا فخما ، وأن ينفق عليها وعلى أهلها في كرم وسخاء ...

وانهار حلم الشاعر، وتبعثرت أطلاله ينخر فيها الديدان ، فاختبل بدوره وتخبط وتمزق . كما عذب هو بالامس ايزادورا ، عذبته إلبوم بلانش. كان جزاؤه من جنس عمله .. اصيب في مقتل عميق من كبريائه وعزة نفسه . نهشته الغيرة ، وافترسته الخيبة ، وسحقه إلبأس والعجر والذل والاستنكار . ومع ذلك فقد تهالك على الفتاة ، وتشبث بها ، وهددها بالقتل ان لم تعد إلىه.

ولكن بلانش هزات به ، وسخرت منه ، وتحدته .. فأحس انه ما يزال يحبها ، بل مايزال يعبدها ، وانه اضعف من طفل أمامها ، وأن ليس في مقدوره أن يلحق بطرف بنانها الناعم الغادر أى اذى .. فناء عليه الكمد والحنق ن واحتواته سورة العجز وإلبأس ، وجرفته هو أيضا مرارة النبذ والاعراض .. فاستوحش وانطوى ، ولم يستطع أن يتخلص من المه حتى في فنه . فاقشعر بدنه اذ ابصر عقله يتوزع ، وذهنه يتبلد ، وخياله الجامح المتدفق يجف يوما بعد يوم ، ويستحيل الى أرض قاحلة لا تنبت غير الشوك والعذاب !..

وخيل إلىه أن عبقريته قد ماتت .. فاشتدت حسرته ، واشتدت

لوثته ، وعز عليه أن يخنق في المهد روائع ذهنه الخارق فلم يجد ملجأ يهرع إله غير المرأة التى شفته وايقظته وخلقته ، وكان الهامها العظيم هو الذى عقد على رأسه أكليل الشهرة والمجد ..

واستجمع قواه ذات صباح ، واستقل سيارته الصغيرة التى كان قد أهداها إله جمع من الادباء المعجبين بشعره واتجه بها صوب منزل ايزادورا..

وكانت المرأة في فراشها ، ماتزال مجهده وعليلة .. فما أن رأت الشاعر حتى قفز قلبها بين ضلوعها .. فنهضت شبه واثبة وارتمت عليه .. ارتمت عليه بالرغم منها ، فأبرقت عيناه ، واعتقد انه قد وجد الراحة بعد التعب ، والملاذ بعد التخبط ، والهواء المنعش المحيي بعد ريح السموم الغاشمة الفاتكة .. ولكن المرأة مالبثت أن تراجعت .. تراجعت وارتعدت من قمة رأسها الى اخمص قدميها .. ارادت أن تضم الشاعر فلم تستطع.. ارادت ان تقبله فلم تستطع . جمدت في مكانها وتأملته لحظة .. تأملت هذا الفتى النابغ الفذ ، الذى كان بالامس كل حياتها ، ثم لوحت له بيدها تلويح مخبول ، وغمغمت والحب يضنيها ، والواجب يحفزها ، والعقل يهديها ، والشفقة تقطع نياط قلبها :

– محال ، ... لقد ارتبطت ... أعطيت كلمتى للرجل الذى أخلص لى في محنتى وخدمنى .. سأتزوج المصور ريتشارد !..

والتقطت انفاسها ، وأردفت وهى تتلوى.

– أنت شاب ..وحرام على أن اشقيك.. لن تقنع ابدا بخريف بعد ربيع .. ستكرهنى غدا بأشد مما كرهتنى بالامس..ستغدر بى مرة أخرى .. هذا اقوى منك .. لقد احببتك انا كامرأة وأم ، اما انت فقد احببتنى كأم فقط ، ثم لم تكفيك المرأة في ولا الأم فنبذتنى ، ومضيت تطلب الانثي .. والحلق أن حب الأم ولو كانت في الوقت نفسه امرأة ، لا يمكن أن يغنى عن حب الانثي ، بل هو قد يقتل المرأة والام في سبيل الانثي !.. فاذهب في طريقك. انه طريق الحياة وانا اسلم به .. ولكن ابحث عن فتاة جدية بك يا سرجى .. تعلم كيف تختار يابنى وعش .. عش وافرح وتزوج ، وابتعد عنى يا حبيبى ، ولا تلوث حرمة الذكرى !

فجن جنون الشاب وارتمي عند قدميها .. جثا على الارض امامها ، والتمس منها ، وتوسل إلىها .. طفق يبكي بكاء الغريق المستصرخ المذعور، وهو يطلب صفحها ، وينشد رحمتها ، ويقول ويؤكد انه قد عرف الآن قدرها ، ويقسم أغلظ الايمان انه لن يحب ابدا سواها ، ولن يخلص ابدا الا لها ، ولن يعيش العمر كله الا من أجلها وحدها ولكن ايزادورا التى التمعت في ذهنها فجأة صورة الماضس الاثيم ، ومثل لها خيالها في تلك اللحظة حبيبها الخائن وهو يغازل غريمتها الفاجرة ، لم تتحرك ، ولم تتأثر ، بل قطبت حاجبيها ، ورفعت رأسها ، ووردت في صوت حاسم المخارج قاطع النبرات :

– لقد اعطيت كلمتى !..

فصمت الشاب وحملق فيها .. حملق فيها ثم تطوح . ثم عصف به

السعال بغتة ، فارتج صدره كأنه ينخلع ، فأسرع وأطبق على فمه بمنديله ، واذا به يبصر المنديل ملطخا بالدم . فارتاعت ايزادورا وصرخت ، وانحنت عليه .ولكنه اقصاها في عنف وهو يلهث. وفجاة وفي لحظة واحده ، في لحظة خاطفة ، في لحظة لم تنسها على وجهه الممتقع امارات عزم راسخ . فتحول عن المرأة ، واستدار ، واندفع نحو الباب وخرج . فلبثت هى في مكانها محيرة وتائةة ، ثم تفطر قلبها ، وجاشت عواطفها . فارتمت على النافذة ، وفتحتها ، وطفقت تنادى " سرجي .. سرجى .. " . ولكن السيارة كانت قد اختفت .. فظلت المراة واقفة تشخص الى الفضاء وهى تزفر. وفي اقل من بضع دقائق ، في أقل من الفترة التى تفصل بين حكم القدر ونفاذه ، ماج الشارع امامها وامتلأ بالناس ، ثم اهتز باب مخدعها وفتح ، ودخلت عليها الخادمة مصحوبة ببعض جاراتها ، وأنبأتها أن سرجى قد مات ..

وكان الشاعر الذى سحقته الهزيمة مقرونة بعودة المرض ، قد أطلق السرعة لسيارته ثم كف عن قيادتها ، فاصطدمت السيارة بشجرة فتحطمت وحطمت صاحبها وأرسلت ايزادورا صرخة مدوية ، ولم تصدق.. ثم اقصت النسوة عنها ، واندفعت الى الخارج ، وظلت تركض حتى بلغت مكان الحادث المشئوم . ولما ابصرت فتاها وحبيبها ، ثمرة جهادها ووليد روحها ، جثة ممزقة ومشوهة ، جحظت عيناها هولا ورعبا ، فطفقت تضرب صدرها وتمزق ثوبها ، وتصيح كمعتوهة :

– أنا .. أنا التى قتلته !..

ولم تستطع ايزادورا أن تحتمل وجود المصور ريتشارد فأحلت نفسها من عهدها له وصرفته عنها .. ولما اضناها العذاب وبرحت بها الذكرى لم تجد في غير فنها عزاء لنفسها فأبدعت رقصة جديدة كانت من أروع وأشهر رقصاتها ، وأسمتها : " خريف وربيع " . ثم انقطعت لخدمة فنها ، ولم تعرف قط بعد شاعرها المعبود رجلا !...

فريسة الاقدار

الحب في حياة الشاعرة الالمانية روزينا مولر

روزينا مولر شاعرة المانية نابغة من شاعرات القرن التاسع عشر ، وقد وقعت في حياتها مأساة ما أظن مثلها قد وقع لمخلوق . والى القارئ قصة هذه المأساة الخارقة التى خلقت فن الشاعرة وأحدثت في حياتها أعمق تاثير ..

في صباح يوم من أيم شهر نوفمبر ، شديد البرد ، ملبد السماء بالسحب ، كان القطار الحديدى البطئ الذى يسير في أراضي " بوميرانيا " القاحلة ذات المستنقعات الكثيرة يقل في احدى عرباته في الدرجة الثالثة فتاة عانسا في الثانية والثلاثين من عمرها ، قضت عليها الحياة الغاشمة أن تكون فريسة البؤس ، الا وهى روزينا مولر

كانت والدتها العجوز قد جنت عقب اصابتها بمرض عصبى حار علاجه نطس الاطباء .. أما والدها الذى كان موظفا في احدى الشركات ، فقد أدمن على معاقرة الخمر بعد وفاة امرأته الى حد انه شرب في أحدى الليالى اكثر مما يحتمل جسمه الضعيف ، فما كاد يغادر باب الحانة حتى وقع مغشيا عليه ثم قضي نحبه في الحال . واما روزينا نفسها ، روزينا التى انحدرت من أب سكير وأم معتوهة ، تغشاها نوبات عصبية طويلة المدى ، وتعتريها أزمات تشنجية يمازجها سهوم في الذهن وشرود في العقل ،

وتشوش في المنطق والتفكير ..

وكانت قد تلقت بعض علوم اولية تمكنها من ممارسة مهنة التدريس.. بيد أن المرض كان يعوقها عن القيام بعملها ، وكان يغرى التلميذات بها ، ويطمعهن فيها ، ويدفعن الى التطاول عليها ..

ولقد حز في نفسها أن تفشل في التعليم بالمدارس ، فعقدت عزمها على طلب الرزق من وظيفة معلمة اولاد في البيوت ، فنشرت اعلانا في الصحف . وسرعان ماتلقيت رسالة من أسرة تقيم في ضواحى بوميرانيا ، تعرض فيها على الفتاة عملا ثابتا باجر معقول ..

وها هى ذى روزينا تفكر في هذا العمل ، وفي الحياة الجديدة التى تنتظرها ، وفي ماضيها الاسود الذى كانت ترتعد فرقا من تصوره ن تخشى أن يلازمها ملازمة المرض ..

كانت فتاة بسيطة القلب ، هادئة الذهن ، تاعسة الحظ ، يشغلها الرغيف عن الشعر ، ويصرفها الواقع عن الخيال ، وتطويها الحقائق في غمرتها فتباعد بينها وبين عالم التاملات والاحلام..

فلما جوفه الصاخب الهادر ، تلفتت حولها .. واذا بها في مكان قفر، جاثم في سفح تل كبير .. فاضطربت وخفق فؤادها . ولكنها أسرعت واستفسرت من ناظر المحطة عن مقر الاسرة ، فانهى إلىها أن البيت يبعد عن المحطة نحو ميلين عليها أن تقطعها مشيا على الاقدام ، فتولاها من فرط ضعفها يأى مفاجئ حيرها ..

وفي تلك اللحظة ، ابصرت صبيا يقفز من عربة حقيرة يجرها جواد مهزول ، ويدنو منها ، ويسألها عن اسمها .. فلما علمت انه موفد من قبل الاسرة ، تهلل وجهها ، ووثبت الى العربة ، ومضت تحدق الى الصبى الذى كان يبتسم لها ابتسامه ساذجة لا تنم عن سرور او فرح ، بل عن سخرية خفية تومض فيها – الوقت بعد الاخر – لمعة خاطفة من عطف صبيانى غريب ..

وانطلقت العربة في طريق ضيق الى عزبة كبيرة ، ذات أكواخ متناثرة، يقطن فيها جمع من فقراء الفلاحين

وتخطت الفتاة حاجزا خشبيا ، وسارت خلف الصبى .. فاذا هى في حديقة مهملة ، تفضي الى منزل ..

ووقف الصبى تجاه الباب ، وجذب سلسلة من حديد هراها الصدأ .. فدق جرس محزون ، وبرزت خادمة عجوز مهلهلة الثياب ، استقبلت روزينا في فتور ، وقادتها الى حجرة مظلمة حيث كان ينتظرها رب البيت وزوجته المشلولة ..

وكان صاحب البيت رجلا مفتول العضل ، وثيق التركيب ، تلمع عيناه السوداوان تحت حاجبيه الكثيفين لمعانا حادا ماضيا مزعجا .. فرمقته روزينا بنظرة واختلجت ، ولكنه تقدم نحوها وحدق إلبها وقال وهو يكاد ينهرها :

– ارى في وجهك شيئا غير عادى .. فما هذا ؟ ..

فأجابت وهى ترتجف :

– انى عصبيه جدا فسامحنى !.

فقال وهو يتفرس فيها :

– إلس بك شئ أخطر من هذا ؟.. لقد استفسرنا عنك ، فعلمنا أن والدتك ماتت مجنونة .. وليس في هذا ما يحمل على الاطمئنان ..

فهتفت الفتاة :

– ولكن صحتى جيدة ... وهذه الاضطرابات العصبية لا تنتابنى الا اذا خفت او قلقت أو تهيبت الناس ..

فالتلفت الرجل الى زوجته ، وقال :

– وما رايك يا أوجستا ؟ .

فقالت المراة بصوت غليظ جاف :

– هذه الفتاة دميمة .. وانا لا أحب الدميمات ..

وأكبر ظنى ان ابنى جوتغريد لن يحبها !..

فصرخ الرجل في وجه زوجته :

– لابد أن يألفها وسيألفها !.. يجب أن ينزل على حكم الظروف!..

أما نزواته فلا ينبغى أن نحفل بها !

فارتعشت مدام أوجستا ، وهمت بالكلام .. ولكن زوجها ألقى عليها نظرة صارمة ، واردف وهو يتجه صوب روزينا :

– ستذهب بك الخادمة الى غرفتك ..

وعاد فألقى عليها نظرة غريبه ، ثم هز كتفيه هزا خفيفا .. وصافح الفتاة مبتسما وخرج ..

وكانت الغرفة ضيقة ورطبة أشبه بسجن ، فأجالت روزينا الطرف فيها وهى ترتعد . ثم شرعت تفتح حقيبتها ن وترتب متاعها ، وتقر الهدوء الممكن في اعصابها المتوترة التى كانت تتلهف على رؤية الصبى " جوتفريد"

وفجاة دق جرس الغداء ، وجلس الكل حول المائدة . فدهشت روزينا اذ ابصرت فتى نحو السابعه عشرة من عمره ، بدين الجسم ، جميل الوجه ، نفورا ، كئيبا ، صموتا ، ينظر إلىها من طرف خفي ن ويزدرد الطعام في سرعة وحشية منهومة ..

وعلمت روزينا أن هذا الفتى هو ابن مدام أوجستا من زوج آخر توفي منذ أعوام ، وخلف لها ولابنه هذا المنزل والعزبة المحيطة به ..

ولمحت الفتاة أن الزوج يكره الغلام ، ويضطهده ويستبد به .. كما أدركت ان " جوتفريد " هو العقبة الوحيدة التى تحول بين زوج أمه وبين استيلائه على المنزل والعزبة والتصرف فيهما كيف شاء .. فأشفقت على

الغلام وبدأت تميل إله ، وتعطف عليه ، وتضاعف من رقتها في معاملته ، ورقتها في التحدث إله كلما شاهدت أمه تنتفض رعبا أمام زوجها ، وتوشك أن تستبد بابنها هى ايضا خضوعا لامر قرينها ، وكسبا لعطفه ..

والحق أن مدام أوجستا كانت تتعذب في صمت ، وتتحمل في صبر ، وتنهر ابنها وتزجره عن طواعية واختيار ، كى تقر الهدوء في نفس قرينها والصفاء في البيت ..

ولكن الزوج كان يحقد على الفتى حقدا أعمى .. كان يبغضه بغضا خبيثا لئيما يتجلى في نظراته الشريرة ، وكلماته اللاذعة ..

والغريب أن " جوتفريد " كان يقابل هذا الاضطهاد بضرب من الغضب البارد ، والاحتمال المعتز ، والازدراء غير المكترث ، فكانت هذه الخطة السلبية في الدفاع تثير ثائرة الزوج ..

ولكن هذه الخطة نفسها كانت تؤثر في طباع وأخلاق " جوتفريد " فتميل به الى العزلة ، وتحبب إله الانطواء ، وتغريه بالامتناع عن التفكير ، والامتناع عن التامل خشية الاصطدام بالواقع المرير ..

ولقد ولدت فيه هذه النزعة على مر الايام عجزا في الاراده ، وتبلدا في الذهن ، وخمولا في الفكر ، وبلاهة في العقل ..

فلما اتصلت به روزينا ، وأرادت ان تعلمه وتثقفه وتهذبه ، ألفت نفسها حيال مخلوق أصم الحافظة ، جامد الادراك ، مغلق الخيال ، لا

يمكن أن يعي شيئا .. فتساءلت لماذا أرادوا أن يعلموه بعد فوات الوقت ، ولماذا استقدموها الى هنا ؟

وتضاربت في ذهنها الخواطر ، وفكرت في الرحيل .. ولكنها كانت فقيرة ، وكانت معدمة ، فآثرت أن تصبر وتبقى ..

والواقع انها بقيت لا بدافع الفقر فحسب .. بل بدافع اخر ابت أن تتصوره !..

كان الفتى خاملا أبله بليدا ، ولكنه كان في جماله الحالم ، وسكونه الشارد ، وهدوئه المستسلم ، ووحشيته النافرة ، ساحرا جذابا ، يغرى المرأة بالحنان ، ويوحي إليها الحدب والرعاية ..

ولقد كانت روزينا الفتاة العانس المنبوذة المحرومة ، تحس أمام الفتى أنها تتبدل وتتحول ، وان شيئا في كيانها يتفتت ويتمزق ويبعث الى النور مخلوقا هو خلاصة نفسها ، وصفوة وجودها ..

وهكذا احبت روزينا " جوتفريد " على الرغم منها .. أحبته وهى تعلم علم إليقين أنه لا يمكن أن يكون عاشقا ، ولا يمكن ان يكون انسانا ، ولا يمكن أن يكون زوجا ..

أحبته كانه ابنها الغالى وطفلها المعبود ، وأحبت فيه ثمرة غرام مخيل ، وطيف زوج فاتن منشود ..

وكانت اذ تجلس إليه لتعلمه ، تشعر بقلبها يخفق ، وبدنها يرتعش ،

وأعصابها تتصدع وتنهار .. فتود أن تبكي ، وتود أن تضحك ، وتود أن تنحنى وتقبل الارض وتشكر الله على هذه النعمة التى لم تكن لتحلم بها أبدا ..

وكان " جوتفريد " يقبع تحت قدميها ، وينظر إلىها بعينيه الخاويتين ، ويتلهى عن الدرس بمداعبة كلبه الابيض الجميل " هارى " الذى لا يفارقه لحظة !... وكان يحب هذا الكلب الى حد العبادة ، وكانت روزينا تغار منه وتنزعج من نباحه ، ولا تطيق من الشاب ان يلاطفه ويدلله ويغمره في بعض الاحيان بالقبلات ..

ولكم تمنت أن يضمها " جوتفريد " بين أحضانه كما يضم ذلك الحيوان ، وأن تعبث انامله في شعرها ، وأن تترفق شفتاه يوما فتمنحها ولو قبلة واحدة !..

على ان روزينا برغم عذابها كانت راضية .. كانت قانعة .. كانت سعيدة .. لا يعكر عليها صفو سعادتها غير ذلك الحيوان الذى كان يفصل بينها وبين حبيبها ، ويشعرها شعورا مؤلما قويا مذيبا بأن " جوتفريد " ليس ملكا لها وحدها ..

وأحست روزينا فجاة ان هذا الحب الطارئ الخارق العجيب ، يلهب أعصابها ، ويضرم خيالها ..

رأت نفسها تولع بالمطالعة ، وتشغف بالتامل ، وتنزع الى تسجيل أحلامها وتأملاتها وعذاباتها في شبه قصائد نثرية تفرج بها عن قلبها الشارد المحروم ..

وضربها برق الحب بصاعقة الوحى فألهبها ، وحرك هامد نبوغها ، وأثار كوامن عبقريتها .. فطفقت تقرض الشعر في بساطة

وأدهشتها هذه المعجزة وحيرتها ، فأرادت أن تعرف قيمة شعرها ، أن تقرأه على انسان ، اى انسان ... فقرأته على جوتفريد ، ولكنه لم يفهم شيئا ، واكتفي بأن هز رأسه مبتسما ومضي يداعب كلبه الابيض ..

هذا الحب الناعس المقرون بعبقرية مغمورة ، ضاعف من حيرة الفتاة وقلقها وعذابها ، فلم تجد بدا من خنق لوعتها في حبها نفسه .. فاسرفت في خدمة " جوتفريد " ، وأسرفت في رعايته ، وأسرفت في تدليله ، ولم تفطن وهى في غمرة بؤسها ونعيمها الى أن هناك عينا ترقب غرامها ، وتتربص بها ، وتحفر تحت قدميها هاوية مروعة لا قرار لها ..

كان الزوج الجشع المستبد يحوم حلوها .. ويحصي حركاتها وسكناتها، وبعد العدة لتنفيذ الخطة الرهيبة التى كان قد استقدم الفتاة من أجلها ..

وفي ذات مساء ، روعت روزينا اذ أبصرت من نافذة مخدعها " جوتفريد " يصرخ في جمع من الفلاحين ويتوعدهم ، فهرولت الى الخارج مسرعة .. فلما رآها الفتى اندفع نحوها وصاح وهو يرتعد من فرط الكمد والغضب :

– لقد اختفي هارى !.. بحثت عنه منذ الفجر في كل مكان فلم أجد له من أثر ! . لابد ان يكون أحد الفلاحين قد سرقه !.. لابد ! .

وعاد فارتمي وسط الجمع المحتشد ، وطفق يصرخ ويتوعد وقد جحظت عيناه ، والتوت شفتاه ، واندفق الدم الى وجهه ، فشوه تقاطيعه ، وضاعف وحشيته غلظة وقسوة ..

وعندئذ ، وبينما الفتى يهدر حانقا يائسا مخبولا ، ويغلى كمرجل حى، اقبل زوج الام ساكنا هادئا مهيبا ، وتوسط الجمع الذاهل المتطلع ، وقال في صوت غائر أجش وهو يرمق روزينا بنظرة هائلة صارمة :

– هذه الفتاة هى التى سرقت الحيوان المسكين !.. هى التى أغرقته في الترعة المجاورة ليلة أمس ! .. كان نباح الحيوان البرئ يزعجها فتخلصت منه !.. ولقد رأيتها تربط حجرا في عنقه وتدفع به إلى جوف الماء .. فلما اخذت بتلابيبها ، زعمت أن مرضها العصبى هو الذى ساقها الى الجريمة على الرغم منها ، ثم التمست الى وهى تقبل يدي أن اخفي السر عن " جوتفريد " وأن اصفح عنها .. ولكنى الآن وأمام الالم الفظيع الذى يشعر به هذا الفتى ، جاهدت نفسي على الصمت فلم استطع ! .

وكان يتكلم في نبرة صادقة متحمسة .. في حرارة مؤمنة مقنعة ، وكانت روزينا تنظر إلىه تائهة العينين ، شاردة اللب ، مغفورة الفم ، تود ان تتحرك وتثب وتنطق فيردها الذهول ، وتخنقها الدهشة ، ويخمد الخوف والذعر في قلبها كل ارادة..

وفجأة وقد فاض بها شعور الاستنكار والسخط ، استجمعت قواها وصاحت :

– انت كاذب !..

فامتقع وجه الزوج ، وقال :

– ماذا تقولين ؟.. اذهبى حالا .. اذهبى الى غرفتك وأعدى حقيبتك ، وتهيئي للرحيل عند مطلع الفجر .. وفي تلك اللحظة أرسل " جوتفريد " صرخة مدوية وهتف :

– لا .. لن ترحل قبل أن تلقى جزاءها !..

وانهال عليها ضربا بكفيه ولكما بقبضته وركلا بقدميه ، فتطوحت الفتاة وذهلت .. ولكنها احتملت وتجلدت وجثت عند قدمى الفتى وصاحت وعيناها مغرورقتان بالدموع :

– انا بريئة يا " جوتفريد " ! .. اضربنى !.. اضربنى ماشئت ، ولكنى اقسم بحياتك الغالية انى بريئة !..

فلم يزده نحيبها الا هياجا .. فمضى يضربها ويركلها كمعتوه ، فثارت اعصابها وغلى الدم في عروقها ، وصاحت على الرغم منها :

– سينتقم الله منك !..

وانتفضت وكأنما قد عز عليها أن تصب حبيبها ولو بكلمة سوء .. فتشنجت عضلاتها ، وتمشت الرعدة في بدنها ، ولم تستطع أن تقاوم .. فانطلقت صوب حجرتها وهى تتلوى وتصرخ وهجهش بالبكاء ..

وارتمت على فراشها لحظة ، ثم نهضت وأعدت حقيبتها ، ثم ارتمت على الفراس مرة أخرى ، وحاولت عبثا أن تنام .. وانقضت ساعات ، ورقد كل من في البيت ، ومزقت روزينا فكرة الرحيل .. فتاقت نفسها الى توديع حبيبها ن فنهضت وفتحت باب غرفتها .. ومشت على أطراف قدميها العاريتين ، واجتازت المشئ الطويل ، ومرت بالحجرة التى ترقد فيها الخادمة ، حتى بلغت مخدع " جوتفريد " . وهناك انحنت على نفسها ونظرت من ثقب الباب ، وجعلت تتامل وجه الفتى ، وتنصت لوقع انفاسه، وتشرب روحها الظامئة من فيض كيانه المعبود ..

ولما ارتوت وهدأت ، كرت راجعة الى غرفتها وهى تحبس انفاسها وتخنق دموعها ، وتحاول الا تصيح . ولكنها لم تكد تشعل مصباحها وتهم بالارتماء في غمرة نوم عميق ينسيها مرارة الواقع وينقذها ، حتى سمعت حركة غريبة منبعثة من أقصي الممشي ، حركة تلتها صرخة .. صرخة واحدة ، صرخة مدوية ، سرعان ما انطفأت وهمدت وغابت في سكون الليل ..

وارتعشت الفتاة وجمدت .. ثم تشنجت واندفعت .. اندفعت بها أعصابها الى الامام ، وساقتها مرة ثانية الى الممشي الطويل .. وقبل أن تبلغ مخدع " جوتفريد " ، لمحت شبحا ينسل منه ويتجه نحو غرفتها ، ثم يصطدم بها ، ثم ينقض عليها ويمسك بخناقها ن ويجرها الى المخدع جرا .. فحاولت أن تتلمص وتضرخ ، ولكن الشبح جذبها إله ، ودفعها الى داخل المخدع ، وألقى بها على فراش الفتى ، واوقد النور !..

وانصب على المخدع ضوء ساطع ، فاجالت روزينا الطرف حولها ، واحتواها من فرط الذعر شبه خيال .. أبصرت أمامها ، على الفراش الابيض الناصع وفي وهج الضوء الغامر المتقد ، جثة " جوتفريد " ، جثة ابنها وحبيبها وينبوع وحيها ومصدر نبوغها وعبقريتها .. مشوهة الوجه ، ممسوخة التقاطيع ، وطعونه في صدرها ، ينزف منها الدم !.

وحانت منها التفاته الى نفسها ، فرات الدم يسيل على يديها ، وعلى وجهها ، وعلى ثوبها .. فضل عقلها ، وتاه فكرها ، وانشبت أظافرها في عنق الزوج المجرم ، وصاحت به وهى تختلج وتجاهد وتذود عن أعصابها ما استطاعت خطر التصدع والانهيار :

– انت الذى قتلته ! . قتلته أيها الوغد ! .. قتلت حبيبى ! .. فعالجها بلطمة القتها صريعة على الارض ، ثم اندفع الى النافذة ففتحها وطفق يصرخ :

– النجدة ! .. الغياث ! .

وفي مثل خطف البرق ، ماجت القرية النائمة ، ولمعت في جوها الاضواء وتقاطرت جموع الفلاحين على البيت ، وامتلأت بهم حجرة القتيل ..

وثابت روزينا الى رشدها لحظة ، فأبصرت العيون الحاقدة مصوبة نحوها ، والقبضات المهددة ممتدة إلىها ، والصرخات واللعنات منهالة كالسيل عليها ، ثم سمعت المجرم يتهمها ، ويؤكد انها مجنونة كأمها ، وأنها

قتلت " جوتفريد " انتقاما منه لانه أذلها أمام أهل القرية وضربها ! ..

رات كل هذا وسمعته فطاش صوابها .. حاولت أن تتكلم ، ولكن شيئا كالموج طغى عليها فجاة ، وعصف بذهنها ، وشوش افكارها ، وأخمد ارانتها . فبدل أن تتكلم غمغمت ، وبدل أن تصرخ قهقهت ، وبدل ان تدافع عن نفسها ، وتجابه المجرم الحقيقى .. ارتمت على جثة " جوتفريد " ، ومضت تقبلها وتضحك وتبكي وهى تردد :

– حبيبى ! . ولدى !

فهتف الفلاحون :

– لقد جنت !

وارتعدت فرائصهم ، وهم البعض منهم بالخروج لابلاغ البوليس .. وفي تلك اللحظة انشق جمعهم ، وانفسح بينهم الطريق ، وظهرت مدام أوجستا المشلولة متكئة على ذراع الخادمة ووجهها مصفر ، وعيناها جاحظتان ، وبدنها يرتعش . فلما بلغت المخدع ن وشاهدت الجثة ، حدقت إلىها طويلا ، ثم تفرست في زوجها برهة ، ثم أغمضت عينيها وأمسكت قلبها بيدها ن وندت عنها صرخة وهوت على الارض فاقدة الحركة والحياة بجوار جثة ابنها !..

وحملقت روزينا في الجثتين كنا يحملق النائم في حلم يريد أن يتبين حقيقة هو أم خيال فصدمتها الفاجعة الطارئة ، ونبهت ذهنها لحظة ..

ولكن هول الحوادث المتلاحقة عاد فراكم على عقلها الصباب ، فلم تفهم شيئا ، ولم تحس بشئ ، وغابت عن وعيها ، واستغرقت في شبه سبات عميق ..

***

وفتحت عينيها فأبصرت نفسها في مكان غريب ، يحيط بهارهط من النسوة ملتمعات العيون ، مكشوفات الصدور ، عليهن غلائل بيضاء ممزقة ، يضحكن تارة ، ويصرخن أخرى ، ويمرحن في حديقة كبيرة كأنهن طوائف من الجن ..

واقتدت بهن روزينا ، وشرعت تمرح مثلهن ، وتعبث مثلهن ، وتحس كلما تلهت وعبثت انها تخرج من نفسها ، وتنطلق من سباتها ، وتخالس الواقع الملموس ، وتريد الى عقلها المدرك الواعى شيئا فشيئا .. وفجأة انجابت السحب عن ذهنها ، وسقطت الغشاوة عن بصيرتها ، واهتز فكرها وانخلع .. أدركت انها في مستشفي مجاذيب ، وذكرت ماضيها ، وذكرت حبها ، وتمثلت لها الحقيقة الهائلة مجرد من كل قناع

وأيقن مدير المستشفي انها قد شفيت من النوبة عندئذ بأنها أصابتها وانها ليست مجنونه ، فصارحها عندئذ بانها متهمة بقتل الفتى " جوتفريد " وأن واجبه يقضى عليه بان يسلمها فورا للبوليس ..

وشعرت الفتاة أن القدر يوشك أن يبطش بها مرة أخرى ويأخذها وهى بريئة بجريرة غيرها ..

وأستجمعت كل قوى عقلها وأرادتها ، وقصت على مدير المستشفي قصتها .. ومازالت به تؤثر في عواطفه ، وتحرك شعور الرحمة والعدل والانسانية في قلبه ، حتى آمن بصدقها واقتنع ببراءتها ، وتأكد أن زوج مدام أوجستا هو الذى دبر تلك المكيدة ، وهو الذى قتل " جوتفريد " وتخلص من أمه ، ليصبح المالك والمتصرف الاوحد في ثروة زوجته ..

وتحمس مدير المستشفي ، وأعرب عن رغبته في مساعدة الفتاة واقناع القضاء بوجوب اعادة النظر في القضية .. ولكن روزينا لم تكد تسمع بأنها يجب أن تغادر المستشفي . ويجب أن تصطدم بالقضاء ، ويجب ان تستهدف لحكم قد يكون عادلا فينقذها وقد يكون ظالما فيقضي عليها القضاء المبرم ، حتى هلع قلبها ، والتمست الى المدير أن يرحمها ، وأن يبقيها في المستشفي بضعة أسابيع اخرى تؤدى في خلالها رسالتها ن وتحقق العبقرية الفذة الكامنة في أعماق نفسها ..

وبهت المدير اذ علم انها شاعرة ، فنزل على أرادتها .. فكانت تقضي سحابة يومها في خدمة المريضات ، حتى اذا ما هبط الليل ، لجأت الى حجرتها ، وفزعت الى قلمها ، وشرعت تنظم القصائد الرائعة تمثل فيها مأساتها ..

ولما وضعت القصائد جنينها " المعنوى " وأتمت ديوان الخالد " حب ودم وموت " ، طلبت بنفسها الى مدير المستشفي أن يذهب بها النيابة العامة .. وهناك أصرت على براءتها وطالبت بإعادة النظر في الحكم الذى صدر عليها فجاءوا بالمجرم الحقيقى ، واستجوبوه ، وضيقوا عليه الخناق

حتى اعترف .. فزج به في السجن ، وحكم عليه بالاشغال الشاقة مدى الحياة !..

وفي نفس الوقت الذى كان يتأرجح فيه حظ روزينا بين البراءة والادانة ، بين الموت والحياة ، ظهر ديوان شعرها ، فهلل له النقاد ، وتهافتت عليه الجماهير ، وطبع منه في شهر واحد أكثر من خمسين ألف نسخة

وتوجت العبقرية هامة روزينا باكليل رائع من الشهرة والمجد والمال .. ولكن ضفائر هذا الاكليل كانت معقودة بدم ابنها ، بدم زوجها المخيل وقرين احلامها المنشود ، فآلت على نفسها الا تجحده ، والا تخونه ، وألا تعيش إلا لتجدد حياته في فن يخلد الى الابد حبه وذكراه ..

الحب في حياة الفنانة لولا مونتس

لولا مونتس امرأة ساحرة الجمال ، اشتهرت بمغامراتها العاطفية وجمعت في حياتها بين استهتار الغانية ونبوغ الشاعرة وقدرة الفنانة وطهارة القديسة .. وإلك قصة هده المرأة مستخلصة من مذكراتها .

قالت لولا مونتس:

– ولدت في مدينة " ليمريك " بأيرلندا في سنة ١٨٢٤، ثم شببت وترعرعت كلكتا ، حيث عهد بتربيتى الى خادمة هندية ، أشربتنى حب الحياة الجريئة الحرة ، وعلمتنى الصيد والقنص ، وراضتنى على النزهات الطويلة في الحقول والغابات ، اعتلى ظهور الفيلة ، وأصيد الاسود والنمور والفهود ن وأمرح في حضن الطبيعة ، لا أعرف التعب أو الالم أو الخوف..

وكنت فتاة رائعة الجمال ، ذات وجه صارم مهيب ، وعينين سوداوين ساحرتين وشعر مموج غزير ، ومظهر فاتن يقترن فيه اغراء الانوثة بروح العزة والاباء والتحدى ..

وكان همى مطاردة الوحوش ، ولذتى العميقة في التغلب عليها .. فلما اكتملت انوثتى واتقد في صدرى دم الشباب ، أصبح همى مطاردة الرجال واذلال كبريائهم واخضاعهم لمشيئتى وسلطانى

وكنت اكره النظام ، وأعبد الفوضي ، وانشد الشعر وأطلب الحب..

وأرسل بى والدى الى اسكوتلندا لاتم علومى ن فبدأت هناك حياة المغامرات التى جعلت منى فيما بعد امرأة خطرة مرهوبة يمشي في ركابها الحب والالم والموت ...

شغفت بضابط في الجيش الهندى يدعى الكولونيل جيمس ، وأيقنت أنه أمير أحلامى المنشود ، فما زلت به أقربه ثم أجفوه ، أقبل عليه ثم أصد عنه ، ألوح له بالحب ، ثم أسخر منه ، حتى أفتتن بى الرجل وتزوجنى . ولم أكد أصبح قرينته حتى لمست فيه انسانا آخر فأبغضته ..

***

رأيته يسرف في تعاطي الخمر ، ويهوى رذيلته أكثر منى ، ويجد السعاده في الكأس أكثر مما يجدها بين احضانى ، فتبرمت به ، وتنكرت له، وبدل أن ارده الى رشده وأكافح لإنقاذه من رذيلته ، فررت من بيته ذات ليلة ، وسافرت الى آسيا الساحرة ، الى مهد خيالى ، الى الهند أرض النمور والزهور والاحلام ..

ولم أكد أستقر في احدى القرى الهندية النائية ، حتى عاد حب ذلك الضابط فالتهب في صدرى ، واحتل قلبى وفكرى ، وأطلق عبقريتى الشعرية من عقالها .. فضقت ذرعا بوحدتى وهمى وخرجت من بيتى ذات صباح ، والفجر ينشر أضواءه البنفسجية على القرية الهامدة ، وارتميت في جوف غابة كثيفة ، وكتبت لزوجى هذه القصيدة التى كانت أولى صرخاتى

العاطفية ، وأولى قصائدى..

أيها الحبيب البعيد القريب ..

الآن فقط أشعر انى أحبك .. الآن فقط احسست بسلطانك وسحرك ، فاتصلت بالفرح الخالد ، وأدركت أن الحب لا يبدو الا من خلف وجه انسانى مختار ، ترى العين فيه رمز السعادة مجسدا ! ..

لقد طوقنى حبك بشعلة مضطرمة ليس في وسع الزمن أن يخمدها

أن قلبى لمفعم بحرارة واحدة ، وهو يحرق بنار أحبها ولا انفك أضرمها بكلتا يدى ! ..

ترى ماذا حل بى؟! .. كيف لم يعد في مقدورى الاحتفاظ بهدوئي؟!..

اواه ! .. أن القلب الذى أضمه في صدرى يكاد يقتلنى ن ولا سبيل الى خلاصي منه إلا بأن أستسلم إلىه ! فتعال .. تعال يا حبيبى ، وأصفح عنى ..

ليس لى أرادة الا ارادتك ! ..

انى أفكر في أفكارى وهى نابعة من نفسك ! ..

أن حبك هو الذى توحى به عيناك يضارع جمال هاتين العينين فأى صدر لا يتهاوى وأى قلب لا يحترق ؟ !

ان فؤادى وقد أضمحل يتقدم الى هذا الحب طالبا حياته الخالدة !

***

ونتظرت طويلا ، ولكن زوجى لم يأت .. فثار ثائرى على حظي ومزقت قلبى خيبة حبى الاول ، وعز على أبتذال كرامتى . فالتهبت كبريائي ، وأيقظت غرائز الشر الكامنة في نفسي ، وزينت لى أن احيا على سجيتى ، وأن أطلق لغرائزى العنان

وكان أن وقع في شرك غرامي أمير شرقى كهل واسع الثراء من أمراء مدينة "كابل" . فأردت أن أعذبه انتقاما لخيبتى ، وثأرا لذلى ، وأستردادا لكرامتى ، وتوكيدا لسلطانى على نفسي وعلى الرجال جميعا .. وهكذا تمنعت عليه فأولع بى ، وأعرضت عنه فطاردنى ، ثم أقبلت عليه فجاة ، فجن جنونه واعتقد أنى قد أحببته ، ولكنى عدت فتملصت منه ، فأقسم أن يعطينى وزنى ذهبا على شرط أن أتزوجه .. فطيبت خاطره وتظاهرت بالرضا ..

ولما جاء خدم الامير بالميزان ، وجلست في أحدى كفتيه وأبصرت الذهب أكداسا تتوهج في الكفة الاخرى ، عصفت بى شيطان كبريائى ، واجتاحتنى نشوة التنكيل والتعذيب . فركلت الذهب بقدمى ، ونهضت ضاحكة مقهقهة ، ورفضت في شموخ هبة الامير .. فازداد تشبثا بى ، وازداد تهالكا على ، فزجرته وصددته ، فتولته الحسرة وملكه إلىأس ، وانصرف هو الآخر إلى معاقرة الخمر حتى أنتابه مرض عضال أنهك منه

القوى ، وأحاله في بضعة أسابيع إلى سبه هيكل من عظام ..

وأخذتنى الشفقة عليه ، فبعثت إله بالقصيدة التإلة :

" أيها الأمير الأحمق الكهل .. أما زلت تحب الصبايا الحسان وأنت في خريف حياتك ؟ .. كيف ؟.. ألا تريد أن تنزل أبدا عن متعة ، ألا تريد أن تنجرد أبدا من شهوة ، ألا تريد أن تتعفف أبدا عن امرأة ، ألا تريد أن تفهم أبدا روعة الحرمان ؟ ! ..

الحرمان هو الحكمة ، والحرمان هو القوة ، والحرمان هو السلام

أية قيمة لكهولتك إذا لم تستطع أن تتخذ من تجارب الشباب سلاحا يحميك من غدر الغرائز ، ويطوع لك خريف العمر ، ويسمو بك إلى دنيا الصفاء ؟ ! ..

ولكنك عاجز عن فهم سر الكهولة ولذلك تستعجل نهايتك وأنت لا تدرى .. "

***

وكان من أثر هذا الحادث أن برمت نفسي بغرام الشيوخ ، وتاقت الى هوى الشباب .. فتعرفت في بمباى الى سياسي فرنسي شاب ، جميل الطلعة ، رخيم الصوت ، لاذع السخرية ، شديد الكبرياء . فأعجبت بجماله ، وراعتنى منه رخامة صوته التى كانت تطربنى كأعذب وأروع نغمات الموسيقى ، وتهز نفسي من الأعماق . فخيل إلى أنى أحببته ، ولكنى تبينت

بعد انقضاء شهر واحد على تعارفنا أنى قد خدعت في تقديرى ، وأن السياسي الشاب رجل متزن الفكر ، راجح العقل ، هادئ الميول والاعصاب ، يستر تحت ظرفه وخفته برودة أرستقراطية مثيرة ، تضاعف الكبرياء والسخرية أثرها المذل العميق . فتعإلت عليه ، وقابلته كبرياء بكبرياء ، فثبت في وجهى ، واحتقرنى عليه ، ونبذنى .. ثم اختفي عن أبصارى فترة كاد فيها الجنون يطوح بعقلى ..

وفجأة أقبل على مترفقا بى ، رائيا لحالى ، مشفقا على ضعفي ، معربا لى عن خالص حبه وعارضا على الزواج ، ولكن ثورة كبريائى احتدمت في عروقت ، فطاف بذهنى أن أخضع له في الظاهر حتى أتمكن منه ، فأصرعه ثم انبذه كما نبذنى .. بيد أنه كان أذكى منى ، فاستشعر دهائي وغدرى .. وأسرع قبل أن يضعف ، وطلب نقله من بمباى بعد أن ودعنى بهذه العبارات التى لم استطع أن أنساها :

– انت غانية لا امرأة .. أنت مخلوق متلون لعوب طموح ، يبحث عن المجد ، وينشد لذة التفوق من طريق التنكيل والتعذيب .. ولذلك لن يعرف قلبك متعة الحب المتبادل أبدا ..

وسافر دون أن يترك عنوانه .. فتمزق قلبى ، واختبل عقلى ، وأحسست أنى قد أحببت ذلك الرجل لأنه كان أقوى منى ، فبكيت .. بكيت لأول مرة في حياتى ، ولم أجد عزاء ليأسي إلا في الشعر .. فنظمت هذه القصيدة التى انتحلها أحد صغار الشعراء لنفسه فيما بعد ، والتى أردت أن ألهب بها حبى ، وأمجد ذكرى الصوت الساحر الرخيم الذى كان ينفرد به حبيبى..

أن صوتك أيها الحبيب ليرن في أذني كالفضة أو البلور ما أشبه صوتك بالمشعل الوهاج ، أو بوسوسة الحلى ، أو بالنور ينبثق فجأة من صلب الظلام !

***

صوتك نزوة من نزوات الشمس ، فرح من أفراح الربيع ، نافذة مفتوحة أبدا على الهواء الطلق ! ..

***

ما أشبه صوتك بالشراع المنصوب على صفحة البحر ، بهدير الموج ، يلمع البرق ، بطين النحل ، أو بصليل السيوف ! ..

صوتك أرض طيبه توافرت فيها عناصر الخصب ..

صوتك عود ومزمار وطبل ..

صوتك مأدبة للجسوم وبهجة للقلوب ، وعيد للآذان !

***

ولقد سمعت صوتك وسكرت به وعشت منه وله .. فطوبى لمن عاش وسمع وسكر ! ..

واستبدت بى الحسرة شهورا طويلة ، وأغرقتنى في لجة طاغية من الكمد وإلىأس .. فاضطربت أعصابى ، وشاعت الجهامة في خلقى ، وأحدثت أسوأ الاثر في صحتى .. فعز على أن أرى جمالى يذبل ، وسحرى

يفتر ، وسلطانى يضمحل ويتقلص ويموت .. فعدت بالرغم منى الى طبيعتى، وانطلقت من جديد أبحث عن ذلك الحب المطلق الخيالى المستعر كالنار ، الثائر كالاعصار ، الجارف كالسيل ..

وحدث أن تعرفت أتفاقا إلى طالب جامعى لم يناهر العشرين .. فخلبتنى منه براءة نفسه ، وطهارة قلبه ، وسذاجة عقله .. فأستملته وقربته ، فلم يصدق سمعه وبصره ، وأرتمي على متهافتا متهالكا .. فتضايقت ، وشعرت أنى أوشك أن أستحيل من عاشقة إلى أم ..

فأعرضت عنه بغتى ، ففقد صوابه ، وتشبث بى ، وتعلق بأهدابى ، وطفق يبكي وينتحب كطفل ، فجاشت عوامل الشفقة في نفسي ، ولم أجد بدا من أن أطيب خاطره وأمنحه موعد غرام ..

ولما أزف الموعد كان الجو في بمباى حارا خانقا ، وكنت متبرمة بالجو، متضجرة من السماء ومن نفسي .. فعن لى أن أستحم في " بنوارى " الرخامي الكبير ، وأن أسبح في الماء البارد المنعش ، فنسيت الموعد ونسيت عاشقى الجديد .. فانتظرنى الفتى طويلا ، ولما أيقن أنى قد غررت به ، كبر عليه أن تبعث به امرأة ، صعد إلى سطح منزله ، وألقى بنفسه منه، فسقط على أرض الشارع جثة مضرجة بالدماء ! ..

هذه المأساة التى رقعت بسببى ، اقضت مضجعى ، وأيقظت ضميرى ، وأبتلتنى أسابيع طويلة بضرب من الخوف والقلق والنورستانيا ، كان يتطور في نفسي تطورا خطيرا ويبلغ حد الهوس

وتمكن منى إذ ذاك شعور عميق بأنى قد ارتكبت جريمة قتل .. فأردت أن أكفر عن ذنبى ، ولأول مرة في حياتى دخلت كنيسة وفي عزمى أن أتج إلى الله ، وأطلب رحمته ، وأصلى ..

ولكنى لم أكد أدخل الكنيسة ، وأتنشق رائحة البخور ، وأسمع تراتيل الشمامسه ، واتفرس في النسوة الورعات النقيات المتجردات من كل زينة وهن جائيات على الارض يتطلعن الى الايقونات المقدسة ، ويضربن صدورهن ندما على ذنوبهن ، ويغمغمن في صحبة الكاهن جميع التسابيح والصلوان ، حتى هبط قلبى في صدرى وهالنى أن أصبح مثلهن ، أن أكفر بالحياة ، والحب ، وأضحي بشبابى وجمالى وانا بعد في الثالثة والعشرين ، فأسرعت وفررت من الكنيسة وقد خيل الى أن الله يطردنى ، ثم ذهبت في تلك الليلة الى حفلة ساهرة ، ومضيت أعبث وأمرح وأرقص لأنسي نفسي، وأنسي جريمتى ، وأخنق في غمرة المرح واللهو صوت ضميرى ..

وسئمت على مر الزمن حياتى في بلاد الشرق ، فتعلمت على يد نفر من كاهنات المعابد الهندية بعض رقصات الهند المقدسة ثم رحلت إلى أوربا ، وتجولت في لندن ومدريد وبروكسل ..

وتمكنت – بعد جهد – من الظهور على مسارح برلين ، فأحرزت برقصاتى الهندية الغريبة نجاحا منقطع النظير . ففتحت أمامى الصالونات الكبيرة ، وأستقبلتنى الأسر العريقة ، وتهافت على المعجبون ، وأصبحت بين عشية وضحاها فنانة أسيوية نابغة يشار إلى بالبنان ..

وعندئذ شغف حبا بى مهندس المانى ملحوظ المكانة في بلاده .. فأعرضت عنه أول الأمر كعادتى وأحتقرته ، فما كان منه إلا أن غافلنى ذات ليلة وأنا خارجة من المسرح ، وأنقض على وأختلس منى قبلة ، فانتهرته في خشونة صارخة ثم صفعته أمام الناس .. فثارت على ثائرة الجماهير التى اندفعت نحوى وكادت تفتك بى . ولكن رجال البوليس أسرعوا لنجدتى ، وبذلوا المستحيل لإنقاذ حياتى ثم احتجزونى في المخفر حتى الصباح ، واستصدروا من الحكومة أمرا بطردى ، فحزمت حقائبى واللوعة تكاد تسحقنى ، ويممت وجهى شطر فرنسا حيث تمكنت بعد كفاح مرير من الظهور على مسرح أوبرا باريس ..

وفي باريس تألق نجمى ، وأستفاضت شهرتى ، وتسنمت غارب المجد ، وتوجت من دون الراقصات أترابى فنانة موهوبة عبقرية ..

وتقاطرت الجماهير على المسرح لمشاهدة رقصي ، وكثر عدد عشاقى ، وأغدق على المال بلا حساب .. ولكنى كنت في صميم نفسي بائسة شقية

كنت أبحث عن ذلك الحب فيفر منى ، وأسعى وراءه فلا أجد غير ظلى ، ولا أكاد أعثر عليه حتى يفلت من بين يدى ، مخلفا في قلبى حسرة لا أستطيع التحرر منها الا بإمعانى في تعذيب ضحاياى كأنما أنا أثار منهم لخيبتى وعجزى ..

ورحت انتقل من عاصمة الى عاصمة ، ومن قارة إلى أخرى .. حتى استقر بى المطاف في سان فرانسيسكو . حيث كتبت مذكراتى ، وحيث

وقع الحادث المروع الذى كان الفصل الأخير من مسرحية حياتى ..

كنت لفرط ما صادفنى من خيبة في تحقيق أحلامى ، ولفرط ما عبثت بقلوب وأطحت بعقول وأهدرت من دماء كنت قد تطورت تطورا نفسيا عميقا .. عاد فالتهمت في صدرى ذلك الاحساس الدينى الغريب الذى زين لى فيما مضى أن أدخل كنيسة وأصلى ، والذى كنت أستشعر جذوته الحية تنقد وتتأجج تحت رماد أحلامى ..

وأستسلمت لهذا الاحساس بجمع عواطفي ، ولم أعد أجد في قرض الشر آية تعزية لنفسي .. فعكفت على الصوم والصلاة ، وزينت جدران بيتى بالصلبان والمسابح ، وصور القديسين ، وأقمت في زاوية من مخدعى سبة هيكل ، كنت أهرع إليه وأصلى فيه كلما ذكرت ماضي ، وذكرت مآثمي ، وتاقت نفسي الى التوبة والندم والتكفير ..

على أنى برغم تقربى الملهوف الى الله ، كنت مضطربة ، وكنت قلقة ، وكنت معذبة .. كان جسدى ما يزال أقوى من روحى ، ورذائلى أقوى من فضيلتى ، وغرائزى أقوى من أرادتى ، فلم أستطع باتجاهى الفجائي نحو الدين أن انصرف انصرافا تاما عن السعى وراء الحب .. فظل قلبى قلب غانية ، وأن كان الشعور الدينى قد أشاع فيه بعض بوارق خاطفة من الطيبة والرحمة والحنان والصدق ..

وتحت تأثير هذا التأرجح والقلق والاضطراب ، خانتني غرائزى مرة أخرى .. فعشقت بكل قوى خوفي ويأسي وحرمانى مصورا نابغا ، رائع

الحسن ، شديد الكبر ، مستوحشا ، نفورا ، غيورا ، لا يصبر على ضيم ، ولا يتجاوز عن أهانة ، ولا يفهم الحب إلا مشيعا بالغيرة ، مشوبا بغريزة الانانية ، ورغبة الحيازة ، وأرادة التملك والسيطرة والقوة ..

عشقته عشقا مبرحا .. وأخلصت له ، وتفانيت فيه ، وحاولت بكل ما أوتيت من سحر الرقة والدمائة والحنان والوفاء أن أكسب ثقته وأدفعه إلى الاقتران بى . ولكنه كان يوجس منى ويرتاب في حبى، ويخشي على مستقبله من ماضي حياتى ، ويأبى ألا أظل خليلته حتى يطمئن إلى وفائي ويستوثق على مر الزمن من أخلاصي وصدق عواطفي ..

عشقته عشقا مبرحا .. وأخلصت له ، وتفانيت فيه ، وحاولت بكل ما أوتيت من سحر الرقة والدمائة والحنان والوفاء أن أكسب ثقته وأدفعه إلى الإقتران بى . ولكنه كان يوجس منى ويرتاب في حبى ، ويخشى على مستقبله من ماضي حياتى ، ويأبى إلا أن أظل خليلته حتى يطمئن إلى وفائي ويستوثق على مر الزمن من أخلاصي وصدق عواطفي ..

وانقضي عام بطوله وهو يأبى أن يتزوجنى .. فجن جنونى ، وعادودنى شعورى الدينى العميق ، وتمكن منى ، وبغضنى في الحرام .. فبت اعتقد أنى مجرمة ، وأنى زانية وأن الله لن يغفر لى أبدا خطاياى إلا اذا صنت نفسي وحرصت على عرضي ، وأنصرفت لفورى عن حبيبى ، وسعيت لتجديد حياتى في ظل حب ، أبيض ناصع حلال ، يباركه الله ويرضي عنه الناس ..

واستحوذت على هذه الفكرة واستأثرت بى .. فتبت الى ربى ،

ونذرت العفة حتى أتزوج ، ثم حزمت أمرى ذات يوم وقعطت صلتى بحبيبى ، وحبست نفسي في بيتى ومضيت أصوم وأصلى عسي أن يغفر لى الله ذنوبى ...

ومكثت في البيت أسبوعا بطوله أتعبد كأنى في دير ..

وفي إحدى الليالى ، والربح تصفر ، والمطر وهطل ، والبرق يخطف وميضه الابصار ، استفقت مذعورة على حركة انسان يتسلق سور حديقتى، ويقترب من نافذة مخدعى ، ويحاول أن يفتح النافذة عنوة لينفذ الى بيتى . فارتعدت فرائصي وصرخت مستنجدة بخادمتى .. ولكن الخادمة كانت راقدة في أقصي البيت ، فعدوت في اتجاه حجرتها وطفقت أناديها . وفي تلك اللحظة سمعت صوت حبيبى ، يسبنى ويلعننى ، ويأمرنى بأن افتح له الباب ..

فتنفست الصعداء ، وهرولت مسرعة لاستقباله ، وانا من فرط شوقى إلىه أكاد أنسي توبتى وما عاهدت الله عليه ..

بيد انى لم أكد أبصره مقبلا على ، وأبصر نفسي مختلجة أمامه ، يهزنى سحر الحب المحرم – كما تهتز ريشة في مهب الريح – حتى ثبت الى رشدى ، وذكرت توبى ، فجمعت أطراف غلالتى على بدنى ونحيت الرجل عنى في عنف ، ووقفت تجاهه شامخة جامدة أشبه بتمثال

وكبر عليه أن انحداه على هذه الصورة ، وأعتقد أنى إنا أنصرفت عنه لأنى أبغضه وزهدت فيه وأحببت سواه .. فارتمي على مندلع العينين ،

محتقن الوجه ، وصاح بى وصوته الهادر يمج كراهية وحقدا :

– أتنصرفين عنى هكذا فجأة بعد أن كنت قد بدأت أومن أنك مثال الأخلاص والوفاء؟! .. مع من خدعتنى يا غادرة ؟ .. تكلمى ؟ .. أين ؟ ! .. أين كنت طوال هذا الاسبوع ؟ ..

فجذبته من ذراعه ، وفتحت باب الحجرة التى أقمت فيها الهيكل ، وقلت له في هدوء وانا أشير الى الزاويه التى أعتدت أن أهرع إليها وأتعبد فيها :

– كنت هنا ! .. كنت مع الله ! .. أنا لم أنصرف عنك لأتصل بأى رجل ، لقد أنصرفت عنك لأستجيب لصوت ضميرى وأتصل بالله ! ..

فجحظت عينا الرجل دهشة وذهولا ، وتأمل الهيكل لحظة وهو مخبول ، ثم تحول إلى وحدق في .. حدق في طويلا وابتسم .. ابتسم ابتسامة ساخرة حانقة مكمدة صفراء وصرخ :

– أإلى هذا الحد يبلغ بك النفاق ؟! أتريدين أن أعتقد أنك قد استحلت في مثل لمح البصر من غانية إلى قديسة ؟! ما أبرع غريزتك في الختل والمواربة والخديعة والتضليل ! . أوصدى هذا الباب حالا وانصتى .. لقد بذلت المستحيل لإغوائي ، فأحببتك كما لم أحبب في حياتى أية أمرأة.. فأنت لى .. أنت لى .. ولابد أن أظفر بك الساعة ..

وانقض على وعيناه تلمعان ، فاستنكرت جرأته الوحشية ، ودفعته

عنى في خشونة متأبية ، فثار ثائره ، وتشبث بى ، فاستجمعت مدخر قواى ، وتملصت منه جاهدة ، وصحت :

– لن أكون لك حتى تتزوجنى ! .. لن أخون الله وضميرى ! ..

ووثبت كما تثب الفهود ، وأحتميت وراء خوان كبير ، وطفقت أصبح مستنجدة بخادمتى ، واثقة من أن الرجل لابد أن يضطرب ويرتدع ويحجم ويخاف . ولكنه تقهقر خطوة وهو يلهث ، ثم عض على شفتيه الملتويتين واختلج ثم غافلنى وأنا شبه تائهة أتشبث بالخوان وأزفر ، وانقض على انقضاض الصاعقة ، وقبل أن انتبه أو أتحرك أو أفكر في الدفاع عن نفسي ، أستل سكينا كان يحملها في جيبه ، وأنهال بعا طعنا على وهو لا يعى ..

وتخطفت الطعنات بصرى كالبروق ، ونزف الدم مني ، فنظرت الى حبيبى وأنا أتلوى وأصرخ ثم عمعمت :

– بوركت يدك التى انقذتنى ! ..

وغشت الظلمة عينى الشاردتين ، فنهاويب على نفسي ، وسقطت بين ذراعى الخادمة مغشيا على !

ولما أفقت ، رأيت خادمتى جاثية تبكي عند سريرى .

وألقيت نفسي في المستشفي منسحقة الروح والبدن ، تلفنى الأربطة، وتحوم حلوى الممرضات كالأشباح . فأستفسرت الخادمة عن حبيبى ،

فقالت لى : إنها لم تدخر وسعا في سيسل إقناعه بوفائي وتوبتى ، ولكنه لم يصدق ، وسلم نفسه إلى البوليس وهو يلعننى .. فانهمرت من عينى الدموع ، وأدركت من همس الممرضات وعطفهن البالغ على ورثائهن العميق لحالى ، أن القدر المحتوم يتربص بي ، وأن ساعتى الأخيرة قد دنت ، فأستويت على فراشي ، وطلبت ورقا وقلما ، وفي مرارة حسرتى على ضياع حياتى ، وفي نشوة فرحى الزاخر بخلاص نفسي ، كتبت هذه الأبيات التى كانت آخر قصائدى ..

أنا زنيقة ناصعة خانها الحظ فنبتت في غاية كثيفة سوداء ..

كان أمل الطهر في نفسها ، ولكن الغابة الكثيفة أحتوتها ، وباعدت بينها وبين متجه النور ! ..

ولقد أرادت الغابة الكثيفة أن تخلب لب الزنبقة ، فأضفت على كل شجرة من أشجارها حلة من فضة ، وعلى كل ورقة من أوراقها ثوبا من ذهب .. فخيل إلى الزنبقة أن الفضة هى النور والمجد ، وأن الذهب هو الحب والحياة .. فأرتمت الزنبقة في غمرة وهمها الساطع ، ولم تعد تشعر أن الغابة كثيفة ، وأن سر فتنتها هو الظلام ! ..

وعانقت الزنبقة الظلام وهى لا تدرى وقالت له : أيها الظلام أنت ساحر .. !

فقال لها الظلام : وأنت أيتها الزنبقة سلطانة الأزهار ! فترنحت الزنبقة عجبا وزهوا ، فقهقهت الغابة الكثيفة ، وطوتها في جوفها الحالك ،

وأوشكت أن تخنقها ..

وعندئذ ، ضرب البرق الغابة بالصاعقة فحرقها .. فتهاوت الأشجار والأغصان ، وانبثقت الزنبقة من بين أكوام الرماد اللامعة ، وتطلعت مبهوتة ، وجعلت تنظر إلى النور ..

ولأول مرة في حياتها أبصرت السماء مثلها ناصعة ، ومثلها صافية ، ومثلها طاهرة .. فأرادت أن تشرئب وترفرف وتحلق وتصبح شجرة لتصافح السماء !

فقالت لها السماء : أصبرى .. لا نور الا بعد ظلام يا زنبقة كما أن لا بعث إلا بعد موت وفناء ..

وأرسلت إليها السماء يدا مباركة أستأصلتها من جذورها ، ثم غرست بذرتها النقية في رحاب الجنة تجاه عرض الله ! ..

***

وسقط القلم من يد " لولا مونتس " وغمغمت : :هوذا الله ! .. " ومال رأسها بغتة على صدرها ، وغلبتها عبقريتها الشعرية ، فأرسلت الروح وهى تردد كلمة الشاعر العظيم " جيته " : "نورا يا إلهى ! ... كثيرا من النور ! .. "

الحب في حياة الموسيقية النمسوية ألما سندلر

من النساء اللاتى استفاضت شهرتهن في العالم الأوربى عقب الحرب الأخيرة ، أمرأة عظيمة الخلق والشخصية تدعى (ألما سندلر) جاء في مذكراتها التى كتبتها بعد وفاة زوجها : " لقد كنت اسعد أمرأة في الدنيا ، لأننى أنكرت نفسي ونبوغى في سبيل إنسان أعظم منى . وحققت حلمي الخارق ولو على يد غيرى . وإلىك قصة هذه النابغة ..

كانت هذه المرأة إبنة مصور نمسوى معروف ، وكانت نابغة في فن الموسيقى ، بل لقد استطاعت أن تبتكر قطعا موسيقية رائعة وهى ما تزال صبية في العاشرة من عمرها . وكانت مشبوبة الذهن والخيال ، واسعة أفق المطامع ، لا يرضيها من نفسها أن تكون مجرد موسيقية نابغة تنحصر شهرتها في محط بلادها ، فوضعت نصب عينيها الجبابرة العظام ، وأرادت أن تصبح عبقرية كبيتهوفن ، أو موزار ، أو هندل . فعكفت على الدرس والتحصيل ، وحذقت أصول فنها ، ثم ودعت العالم ، وحبست نفسها في بيتها الريفي الصغير ، وشرعت تؤلف القطعة تلو القطعة ، وتعرض أعمالها على أساتذة الفن ، ولا تتردد في حرقها أو تمزقها إذا قيل لها أنها لم تبلغ المستوى الذى بلغته أعمال بيتهوفن ، وموزار .. وكانت تقول لأهلها وأساتذتها : إما أن أكون شبيهة بالعباقرة الأعلام وإما ألا أكون ! ..

وأستغرقتها أطماعها ، وأستبد بها خيالها الجامح ، فأمضت في الدرس والتإلىف نحو سبع سنوات كاملة . ولكنها بعد جهد متصل ، وكفاح دائب عنيد ، أحست أنها ليست خارقة التفوق ، وليست عبقرية ، وأن من المحال عليها أن تبلغ مستوى الموسيقيين العالميين العظام

وانتابها من فرط يأسها شبه جنون ... عذبه تحطم حلمها ، وفراغ قلبها ، وحاجتها إلى هدف معين كي تعيش . وكان في وسعها أن تكون موسيقية مرموقة ، وأن تظفر في بلادها بالمجد والمال ، ولكنها بعد خيبة أملها في عبقريتها ، زهدت في المجد وزهدت في المال ، واستجمعت قواها ، واعتزمت أن تسلك طريقا أخرى ..

أرادت أن تحقق على يد غيرها ما لم تسطع أن تحققه بنفسها .. أرادت أن تخلق رجلا .. رجلا عبقريا يؤكد غايتها البعيدة ، ويبعث حلمها العظيم ، ويعزيها عن نقصها ، ويكون هو مبدع الاعمال الموسيقية العيا التى عجزت هى عن ابتكارها..

وهكذا خنقت في نفسها شخصية الفنانة وأحبت الأنثي .. بحثت عن موسيقى نابغ في مقدورها أن تجعل منه يوما فنانا عبقريا .. وشاء القدر أن تلتقى بالملحن المشهور " جوستاف ماهلر " الذى كان يكبرها بعشرين عامل .. فأعجبت به وأحبته وتزوجته وعاشت معه عشرة أعوام وأنجبت منه بنتين .. وكانت في غضون ذلك تنكر نفسها ، وتنكر نبوغها الخاص ، وتبذل صفوة قواها ، وعصارة فكرها وشبابها ، كي تجعل من زوجها ذلك العبقرى الموسيقى الفذ الذى أرادت هى أن تكونه ، والذى كان هو مثلها الأعلى .. واحتملت

من زوجها السيئ الطبع ، الغليظ القلب ، شر ضروب الأضطهاد والتعذيب ..

كان وهو الكهل يغار عليها ، ويستبد بها ، ويعيرها بفشلها ، ويحتقرها . ولكنها كانت تؤمن به ، وتعتقد اعتقادا راسخا أن وسعها أن تجعل منه عبقريا .. فمضت تشجعه ، وتنفث فيه روح الكفاح ، وتوحي إليه من مولدات فكرها وخيالها ما لم يكن يتوقع .. فغار منها كفنانة متمكنة فوق غيرته عليها كامرأة صبية وجميلة .. فدب الصراع بينهما عنيفا ومروعا ..

وأحست المرأة أن زوجها يكرهها ، لا لأنها فنانة مثله فقط ، ولا لأنها صبية رائعة الحسن فقط .. بل لأنها تغريه بالعظائم ولأنه هو نفسه لا يشعر في نفسه بأية قوة تدفعه الى أن يكون عبقريا وعظيما ..

وخاب أملها فيه ، وأسودت الدنيا في وجهها ، وعندئذ توفيت ابنتها الكبرى .. فاشتد يأسها وفكرت في أن تعهد بابنتها الثانية الى قريبة لها ثم تنتحر .. ولكن زوجها نفسه مات بعد قليل ، فعادت أراده القوة وتحقيق العظمة ، واستبدت بها . فأبت الا أن تبحث عن رجل آخر موهوب يمكنها أن تجعل منه عبقريا ، سواء في الموسيقى أو في أى علم أو فن . فالتقت بالرسام الكبير " أوسكار كوكوتشكا " وأولعت ب وأعتقدت أنه ضالتها المبتغاة ، ولكنه هو الآخر كان مجرد نابغة ، وكان رجلا ضعيف الخلق والارادة وسكيرا .. فنبذته وتعلقت بالمثال " ولتر جرابيوس " فتبين لها أن المثال مقلد لا مجدد ، وأنه هو أيضا ضعيف الشخصية وعبد للمسير والنساء فأبغضته وانصرفت عنه ، وسدت في وجهها السبل ..

أحست أن لا رجل هناك يصلح لها ، ولا رجل في قوة حلمها ، ولا رجل

في مستوى مثلها الأعلى .. فعافت الرجال ، وكرهت الدنيا ، وراودتها فكرة الانتحار مرة ثانية ..

وبالفعل سافرت إلى القرية التى نشأ فيها والدها ، وعهدت بابنتها إلى عمة لها ، ثم كرت راجعة إلى بيتها في فينا ، حيث أغلقت أبوابه عليها ، وأبتلعت كمية كبيرة من الأقراص المنومة ، ثم تمددت على فراشها تنتظر مقدم الموت الذى لم تجد غيره منقذا لها . ولكنها وهى في غمرة شعورها بالموت يزحف إليها .. فهبت من فراشها أشبه بجثة تتطوح ، وغالبت ضعفها ، وغادرت البيت ، واستقلت عربة اتجهت بها نحو أول مستشفي صادفها ..

وهناك ، وهى بين إليأس والأمل ، والموت والحياة ، والطبيب يسعفها ، والممرضات يحطن بها ، تقرر في لحظة واحدة مصير حياتها .. ترامي إليها من حجرة العمليات صوت رجل يصرخ ويقول :

– لا أريد منوما .. وفي وسعى أن أحتمل .. أريد أن أمتحن قوتى .. أريد أن تجرى لى العملية بدون منوم !

وكانت العملية خطيرة .. فأذهل المرأة أن يغامر ذلك الرجل المريض بحياته وأن يقدم على مثل هذه المغامرة لا لشئ إلا ليمتحن قوته ويتفوق .. فاستفسرت عنه ، فقيل لها أنه الكاتب الأديب الناشئ " فرانز ورفل " فلم تكد تسترجع قواها ، وترتد إلى بيتها ، حتى بعثت بمن ابتاع لها مؤلفات الكاتب ، وشرعت تقرؤها .. وكان كشفا خارقا لم يخطر لها قط في بال .. كانت القوة التى تنشدها تكمن هنا .. كانت بواكر العظمة تربض هنا .. كان كل سطر من السطور التى كتبها"فرانز" ينم عن نبوغ أصيل ، لو أذكته شعلة الحب ،

وتعهدت ناره امرأة ممتازة ، فلابد ان يضطرم يوما ويبلغ حد العبقرية ..

وأتصلت "ألما" ب "فرانز" عام ١٩١٨.. فكان التقاء الروح بالروح، والقوة بالحافز ، والفن بالالهام .. فأحب الأديب المرأة ، وشغفت هى به ، وأيقنت انها ستجعل منه العبقرى الفذ الذى تنشده ..

وتم زواجهما في العام نفسه .. وعرفا نعمة الاندماج الكامل بالفكر والقلب والجسد ، وتحت تأثير حب المرأة وألهامها ، وحنانها وأخلاصها ، ورعايتها الدقيقة لصحة زوجها ، وفنائها في فكره ، وسهرها الطويل وهى تراجع وتنسخ ماك كتب ، نمت مواهب " فرانز ورفل " ثم تلقت وازدهرت في طائفة من الاعمال الرائعة كان آخرها قصته البديعة " انشودة برناديت " التى طبقت شهرتها العالم ، فخلدت اسم الاديب ، وأكدت عظمته وعبقريته

ومات " فرانز " عام ١٩٤٥مكللا بالمجد .. أما " ألما " فلم تعرف بعده أى رجل ، وعكفت على كتابة مذكراتها التى تقول فيها إنها كانت أسعد امرأة في الدنيا ، لأنها أنكرت نفسها ونبوغها الشخصي في سبيل انسان أعظم منها ، وحققت حلمها الخارق ولو على يد غيرها ، واستطاعت ان لتهب في نفس زوجها الممتاز حافز العمل والجهاد وإراده التفوق والعبقرية ..

طريق الشوك

الحب في حياة الشاعرة الإيطإلية آدا جرى

تألق نجم الشاعرة الإيطإلة آدا جرى في مطلع هذا القرن ، وتفجر شعرها الإنسانى من ينبوع العذاب .. وإلىك قصة حياتها التى استئندنا في وضعها إلى كتاب للناقد الفرنسي أوسكار لافورج

أن آدا لا تفكر إلا في يومها ، وفي ماضيها القريب المائل في فسحة خيالها ، وفي هذا الألم المبرح العميق الذى عصف بها وأوشك أن يجرد شبابها من كل قوة وكل نشاط وكل أمل ! .. وكيف لا تتألم والقدر الغاشم يطاردها ، ويأبى إلا أن يسومها شر ألوان العذاب ..

إن تلك العبارة الحادة اللازعة التى ينطق بها كل لسان .. تلك العبارة الشائنة المروعة ما تنفك ترن في أذنيها وتهتاج أعصابها وتهز كيانها من الأعماق : " إنك ابنة سفاح !.. ابنة الغانية المشهورة جلوريا .. أما والدك فرجل مجهول .. إنسان أقبل وتمتع ثم هرب .. "

الجميع يعرفون ذلك .. وأنبل الناس نفسها ، وأكرمهم خلقا ، لا يغض الطرف عنه إلا ليعود فيسدد الإهانة ويرسلها في صميم القلب والروح ..

ولقد أحتملت آدا هذه الإهانة في المدرسة أيام كانت طفلة ، وفي

الجامعة عندما أصبحت طالبة ، وفي المصرف الذى تعمل فيه الآن بمعزل عن رفيقاتها وعن زملائها الشبان الذين يحاولون اتخاذها أداة للهو والتسلية.. غير أن هذا الشقاء يهون ، ويستحيل إلى سعادة ورضا ، لو ثابت الغانية الكهلة إلى رشدها ، وأرتدت إلى محيط الأسرة ، وأصبحت خليقة بلقب أم ووالدة ! هذا هو الذى يحز الآن في صدر آدا ..

إن أمها تأتى إلا أن تسلك السبيل الذى ألفته ودرجت عليه .. تأبى إلا تعيش حرة من كل قيد ، مطلقة من كل واجب ، مستسلمة لغرائزها ، منساقة وراء عشيقها الجديد ، تؤثره على نفسها وعلى آدا ، وتنفق عليه من مال ابنتها الشقية المجاهدة ! ..

ولقد حدث بالأمس إن أرادت الغانية المفتونة انقاذ عشيقها من ورطة مإلية ، فانسلت تحت جنح الظلام إلى هنا .. إلى مخدع ابنتها ، وفتحت درج خزانتها ، وسرقت مبلغا كبيرا من المال هو كل ما أدخرته آدا في ثلاثة أعوام قضتها في عمل مرهق وذل عميق .. سرقت المبلغ ثم جاءت إلى ابنتها صباح إلىوم ، وفي قحة غريبة مشوبة بالقسوة والتحدى صارحتها بأنها هى السارقة ، وأن المبلغ من حقها ، وإنه جزء مما لها في عنق ابنتها من جميل .. وثارت ثائرة الفتاة ، وهددت امها بقبض يدها عنها ، والتبرؤ منها ، وترك البيت ، أن هى لم ترتدع وتتخل إلىوم ، بل الساعة عن عشيقها .. فاختبلت الأم وجاش غضبها ، ولكنها سرعان ما هزت كتفيها ساخرة ، وانصرفت مقهقهة تحمل مال العمل المقدس غنيمة باردة لخليلها ..

وها هى ذى آدا تفكر في هذا كله وتختلج وتفيض من عينيها الدموع..

ولكن أى جدوى من البكاء .. يجب أن تحزم آدا أمرها ، وتضرب النار في أرادها ، وتحرم أمها المال حتى ترعوى . وهذا إليوم هو آخر أيام الشهر ، وقد تقاضت فيه آدا مرتبها ، فعليها أن تحتفظ به ، وتساوم عليه، ولا تنفق منه على المنزل ليرة واحدة إلا في مقابل عودة أمها الضالة إلى حظيرة البيت ! .. واستحوذت عليها هذه الفكرة وتمكنت منها ، وأقترنت بصورة لاحت لها فجأة .. فاستضاء محياها وأبرقت أساريرها ونهضت .. ثم أسرعت فألقيت عليها معطفها ، واختطفت قبعتها ، وغادرت البيت ، ميممة وجهها شطر منزل " جويدو فيرارو " أخلص زملائها ، وأقربهم إلى نفسها ، والرجل الوحيد الذى تحبه وتعبده ..

وظلت تمشي رازحة النفس تحت وطاة همها وقلقها وعارها .. ظلت تمشي وهى تفكر ، وتتصور ، وتتخيل ، وتتمنى من أعماق قلبها لو أنها خرجت بغتة من ذاتها ، واندمجت في شخصية حبيبها وعاشت ولو بالوهم تلك اللحظة الغرامية الأخيرة التى جمعتها به والتى انطبع سحرها العلوى في شغاف قلبها ..

واستبدت بها ذكرى تلك اللحظة .. فأرادت أن تسجلها ، أن تبعثها، أن تخلدها ، أن تحميها من تقلب الأيام وغدر الزمن ، فانتزعت من جيبها كراستها وقلمها ومضت تكتب ، وقد انثالت خواطرها ، وأتقدت عبقريتها وكتبت هذه القصيدة ، وهى تئن وتزفر :

" نحن في الحجرة وحدنا .. أنا صامتة ، وهو صامت ، وكل منا يسمع بقايا كلمات الآخر تموت شيئا فشيئا كما يموت الرنين في جوف الجرس ! .. لا نبأة تسمع ولا همسا ! ..

في قلب حبيبى نفس الموسيقى التى تهدر في قلبى ! .. لقد انحنى على وانحنيت عليه ، ومكثنا صامتين نصيخ السمع الى نفس النغم ! ..

انعقد لسانه .. تطلع إلى في ذهول ، وتطلعت إليه في فرح ..

أثاره الدهش والإعجاب فحاول أن يتكلم .. أراد أن يفهم ! .. أراد أن يقتل الخلود ! .. إنه رجل ! ..

إنه مسكين ! .. صمتا يا رجل ! .. لا تتحرك ! .. نحن في أرجوحة القدر السحرية نتمايل بين الموت والحياة ! .. لا تتحرك ! .. انتظر ! .. ثانية أخرى ! .. الألم يختفي ! العالم يتوارى ! .. انظر .. تأمل .. انتهى !

وقف الزمن وخلدت اللحظة العابرة ! .. "

وأحست آدا بعد أن طالعت ما كتبت بفرح عميق وراحة غريبه .. فابتسمت راضية عن عملها ، واتجهت بخطي عازمة ثابتة نحو منزل حبيبها..

وفي هذه الساعة نفسها كانت الأم المجرمة مضطربة قلقة حائرة ، تغادر منزل عشيقها ، وقد ضاقت ذرعا بأنانيته وطمعه وغلظته وقسوته .. لم يكترث للجرم الذى اقترفته من أجله .. لم يكفه المبلغ الذى حملته إليه ،

بل طلب المزيد ، وألح في الطلب ..

والواقع أن جلوريا كانت لا تحب ذلك الرجل .. كانت تتعلق به زهوا منها وكبرياء ، وتفاخرا على أترابها بأنها ما تزال صبية ، وما يزال جمالها يطمع فيها الرجال . وكانت في السابعة والأربعين من عمرها ، مديدة القامة عريضة الصدر ، ممتلئة البدن ، ذات شعر أسود وخطه الشيب ، وعينين لامعتين ساحرتين ، وبشرة مرمرية فاتنة . وكان كل همها في الحياة أن تحتفظ بالبقية الباقية من هذا الجمال ، وأن تكافح الشيخوخة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ..

ولكن هذه المجاهدة إلبائسة كانت تجعل منها سخرية الرجال والنساء . ومع ذلك فرغبة الحياة كانت تختم على بصرها ، وتذهب بلبها ، وتدفعها إلى مطاردة الشبان ، فتزيد في نفرة الناس منها واحتقارهم لها .. غير انها لم تشعر بالخجل أبدا ولا بالعار .. طوح بها جنون الكهولة .. ملكتها أرادة التمتع .. أستبد بها خيال الغرام ، فشرعت تبحث عنه ، وتتهالك عليه ، وقد عز عليها أن تودع الشباب والجمال دون أن تفوز ولو لآخر مرة بلذة الحب ونعيم الهوى ..

ولقد ارتضت هذه العلاقة بعشيقها لا لأنها كانت تحبه ، بل لأنه كان الرجل الوحيد الذى رضي بها ، والذى أستطاعت أن تحتفظ به وتخضعه بقوة المال .. ولكنها الآن وقد احتواها العشيق ، وبرم بها ، ولم يقدر عظم تضحيتها ، سخطت عليه ، واستنكرت جحوده ، وأحست أنها قد خدعت نفسها عندما أعتقدت أن في مقدورها أن تشترى الحب بالمال !..

وانطلقت تحت الخطي ، مطرقة الرأس ، ساهمة الطرف ، تخنقها اللوعة والحسرة ، حتى أشرفت على دارها ، ولاحت لها عن بعد نافذة مخدعها ، مفتوحة المصراعين ..

وتقدمت بضع خطوات ، ثم تراجعت بغتة وجمدت .. لم تدر ماذا أصابها .. خيل إليها على الرغم بغتة وجمدت .. لم تدر ماذا أصابها .. خيل إليها على الرغم منها أن قوة هائلة ، ريحا عاتية ، عاصفة مجتاحة ، انقضت عليها ثم جرفتها وجعلت تدور بها في شبه أعصار .. وتقدمت بضع خطوات أخرى ، وهى ما تفتأ تنظر وتحدق إلى نقطة واحدة وهيكل واحد ..

أبصرت ابنتها آدا واقفة عند عتبة البيت تتحدث إلى شاب لم تقع عين جلوريا على انضر منه ولا أكمل ولا أفتن .. شاب خمرى اللون ، مفتول العضل ، مشرق الطلعة ، يفيض مظهره أناقة ورجولة وسحرا .. ارتعدت جلوريا وتقدمت أيضا ، وشد ما كانت دهشتها عندما أبصرت ابنتها متهللة الوجه ترحب بها أجمل ترحيب ، وتعرفها إلى السنيور جويدو فيرارو .

وبسطت جلوريا يدها للشاب وصافحته وهى ترتجف .. ثم حولت بصرها نحو الفتاة ، ثم أحست كأن بدأ غلظة تقيض على عنقها ، فلم تستطع الوقوف وأستدارت وأسرعت بالدخول وهى تلهث

ولم تكد تنقضي بضع دقائق حتى فتح باب مخدعا ، وألفت نفسها

تجاه ابنتها آدا وجها لوجه .. وجلست الفتاة على مقعد وقالت في هدوء :

– أماه ، يجب ان تقطعى كل صلة لك بصديقك ! .. لن أطيعك بعد إلىوم ! .. لن أمنحك من مالى ما أعلم إنه سوف ينفق في المعرات ! .. أنت مخيرة بين حياة الشارع وحياة البيت ! .. نعم .. لاسيما وأنا ..

فصرخت الأم :

– وأنت ماذا ؟ ..

فأجابت الفتاة وقد لمعت عيناها :

– وأنا مقدمة على الزواج يزميلى الذى رأيته الآن ! فشرد بصر جلوريا واختلجت ، ثم أرسلت نفسا مستطيلا ، ثم أغمضت عينيها نصف أغماضة وقالت في شبه غمغمة :

– أعدك بكل شئ ! .. لن أرى صاحبى أبدا .. فلم تصدق آدا سمعها ، وجمح بها السرور .. ففتحت ذراعيها ، وضمت أمها إلى صدرها ، وطفقت توسعها ضما وتقبيلا ..

واقترن آدا بجويدو ، وانفتح أمامها جو من الحياة جديد .. أحرزت النصر الكامل الذى طالما تطلعت إله .. انقذت أمها من برائن الدعارة ، وردتها إلى محيط الأسرة ، وفازت بالشاب الذى تحبه ..

ولكن نفس مدام جلوريا لم تقر لحظة إلا لتثور ، ولم تسكن مختارة إلا

لتتحفز للوثوب ..

لقد افتتنت الأم بزوج ابنتها .. أخذتها عاصفة حبه في أقل من لحظة ، فنخلت عن عشيقها من أجله ، وعادت إلى حياة الأسرة من أجله ، ولم يخطر على بالها أنها بهذا الحب المحرم الأثيم تسلب ابنتها الحياة بعد المال وتقضي على سعادتها ومستقبلها شر قضاء ..

واستشعرت آدا في حديث امها مع جويدو نغمة شاذة ، وفي حركاتها طابعا غريبا ، وفي نظراتها ولفتاتها ذلك الخوف العميق المقترن بالإغراء الصامت والدال على تبذل المرأة وانسحاقها تحت عاطفة الحب.. فروعت آدا وأدركت كل شئ ..

وبدأت المرحلة الثانية من مراحل عذابها .. عاشت في قلق دائم موزعة الفكر بين مسلك أمها ومسلك زوجها .. أما مدام جلوريا فقد أشرق محياها ، وازدهر بدنها ، وتألقت أنوثتها ، كان وجود من تهوى بقربها قد أفاض عليها من نوره ذلك الشباب المجدد الذى كان غاية حياتها ..

عندئذ لم تر آدا بدا من استجماع قواها والدفاع عن نفسها .. وكان جويدو لم يفطن بعد إلى حقيقة عواطف جلوريا من نحوه ، فأسرعت آدا وقطعت على أمها الطريق وأعربت لزوجها عن رغبتها في الأنفصال عن والدتها والحياة في بيت مستقل ..

ودهش الزوج لهذه المفاجأة ، ولكنه لم يحاول أن يفهم ولا أن يعترض . أما جلوريا فقد ذعرت واستنكرت ورفضت .. غير أن آدا أصرت على

موقفها ، وعرضت أن تعود إلى العمل إلى حياة التهتك والرذيلة ..

وتمت الخطة بالفعل ، وأشتغلت آدا في إحدى الشركات ، ثم حملت ووضعت مولدرا ذكرا ، جاءت له مكرهة بمربية .. ثم عادت إلى العمل ، أسعد ما تكون بالجهاد المر ، والكفاح الشاق ، في سبيل الاحتفاظ براحتها وأمنها ..

وكانت الأم تزور ابنتها كامرأة غريبة ، وتلهج بحب حفيدها كجدة بارة ، وتتحين الفرص لترى جويدو ، وتنظر إليه ، وتحادثه ولو لحظة . وكانت البنت حذرة يقظة ، والأم حانقة ناقمة ، حتى انقضت عشرة شهور على هذه الحال ، نما في غضونها الطفل ، وشرع يحبو ويملأ البيت حركة وبهجة ونورا ..

وطفقت الجدة تتعلل بحاجتها إلى رؤية حفيدها ، وتسرف في زيارة البيت . فحارت آدا في أمرها ، وأستبد بها القلق والخوف مرة أخرى ، ولم تعرف ، وأمها تطاردها ، وطيفها يتبعها ، كيف تلاحظ حركات الكهلة المفتونة ، وكيف تراقبها ، وكيف تجرؤ فتصارحها بالحقيقة وتلزمها حد العقل والواجب ..

وبرح بها القلق والخوف ، فكرهت امها على الرغم منها .. ولم تستطع إلا أن تمثل هذه الكراهية المحتجزة المكبوتة في قصيدة فرجت بها عن نفسها ، ومضت تتغنى بها في وحدتها ..

وهذا ما كتبته :

" هدوءا يا قلبى وانظر إلى الغنية على حقيقتها ولا تجزع ..

لقد أحببتها يا قلبى ، فثب إلى رشدك الآن وتاملها .. عينها الفاترة لا تضحك إلا لتمكر ، وشفتها القانية لا تقبل إلا لتخدع ، ويدها الناعمة لا تعطي إلا لتأخذ .. إنها يا قلبى ماء وهواء ! ..

الله يكره حسنها ، وروح الخير تمقت جسمها ، ونور العقل لا يلبث أن يطل عليها حتى يرتد مذعورا ويغشاه من فرط اللوعة كمد وظلام ..

انها يا قلبى ليل وصحراء ! ..

في جيدها الأتلع مرجل يغلى ، وفي صدرها الأملس أتون يستعر ، وفي قدها الأهيف ظل رمح مسموم .. انها يا قلبى شهوة ودماء ! ..

فانظر إليها ياقلب ولا تجزع .. لا تدع الكره يخمد فيك الحب يا قلب وأياك أن تتهور .. أحذر العقوق فهو عار ، وأحذر الثأر فهو جريمة ، وأحذر الكلام فهو فضيحة ، وأحذر الفضيحة فهى موت وخراب .. خذها بالحسنى ياقلبى وأصفح .. الصفح أجدر بك وأكرم وأنبل ..

إنها غانية ولكنها أم ! ..

***

ولك تكد آدا تنظم هذه القصيدة لتستمد منها بعض القوة وبعض العزاء ، حتى فاجأ القدر بالضربة القاصمة التى لم تكن في حسبانها ، والتى

كانت ثالث وآخر مرحلة من مراحل حياتها المفعمة بالأسي ، الزاخرة بالعذاب ..

أصيب ابنها بنزلة شعبية حادة ، وانتابه سعال مزمن جاف ، وساوره ضرب من الحمى خبيث متقطع خيف منه على حياته . فجن جنون آدا ، ولم تجد بدا من دعوة أمها لنجدتها كي تطمئن على العناية بالطفل أثناء انصرافها إلى العمل ..

ولم تستطع الجدة أن تكتم فرحها .. فلبت الدعوة مسرعة ، وأستقرت في البيت ، ومضت تعاون آدا والمربية في العناية بالطفل ..

وفي ذات مساء ، والريح تزأر ، والرعد يدوى ، والبرق يومض في صفحة السماء ويخطف بريقه الأبصار ، كانت الغانية جلوريا جالسة بمفردها تجاه سرير حفيدها تقيس حرارته وتدونها ، وتلحظ في سهوم وشرود أن درجاتها قد انخفضت بالتدريج وأن الطفل يتمائل للشفاء ..

وكانت المربية في يوم أجازتها ، والبيت ساكنا ، وموعد انصراف آدا وزوجها من العمل لم يحن بعد ..

وفجأة تعاقب البرق ثم هطل المطر . فهبط قلب جلوريا في صدرها ، وعادت تتأمل ميزان الحرارة وهى ترتجف .. لن تظل طويلا هنا .. لقد شفي الطفل أو كاد ، ويجب عليها أن تغادر المنزل بعد أيام والا تبرمت بها ابنتها ثم أكرهتها على الرحيل .. ليت الطفل يعود فيسعل ويحم لتستطيع أن تبقى ولو أسبوعا آخر .. أسبوعا آخر فقط ..

وهمت على الرغم منها بتقبيل الطفل ، ولكنها دهشت من رغبتها ، فكبحتها ، وظلت تحدق إلى كومة اللحم المختلجة وهى تعض على شفتيها وتلهث .. وتفرست في الطفل أيضا ، فألفته يبتسم ، ثم يغمض عينيه . ثم ينام . فنهضت واتجهت نحو مقعد مستطيل وانتزعت منه إحدى وسائده الكبيرة ، وهمت بأن تضع الوسادة كعادتها على السرير بجوار الطفل النائم ..

وفي تلك اللحظة ، وقبل أن تتحرك ، سمعت المفتاح يصر في قفل الباب الخارجى ، وترامي إلها وقع أقدام جويدو وهو يدخل متجها إلى مخدعه لينضو عنه ولا شك ثيابه التى بللها المطر . فأجفلت وتولتها رعدة ، ووقعت منها الوسادة على الارض ..

انتابها ذهول كذهول المأخوذ ، فجرفتها اللهفة ، واكتسحتها الحرقة .. فاندفعت بدون تفكير ، اندفعت كمن يمشي في حلم ، واخترقت دهليزا طويلا ثم تحولت صوب المخدع ، ودخلته ، وملء نفسها الأمل بأن تستبقى فيه جويدو ولو لحظة تمكينها من مكاشفته بحبها ، وأغرائه بنفسها ، قبل أن يخفف لرؤية ولده ، وقبل أن تعود آدا !

وساد البيت سكون رهيب ، ثم انقطعت بضع لحظات .. ثم سمعت همهمة طويلة منبعثة من المخدع ، ثم انفجر صوت ساخط مستنكر يصيح:

– اخرجى ! .. يجب أن تخرجي ! ..

وبرز جويدو على عتبة الباب ، ممسكا بالمرأة يدفعها دفعا ، ويجرها

جرا ، وهى تتطوح بين يديه ، وتأبى إلا أن تتشبث به ، وهو يصدها وينهرها ويدفعها ، ويردد حانقا مستهولا مستشيطا:

– اخرجى .. اخرجى وإلا قتلتك !

وعندئذ ، وفي غمرة الصراع الذى أيأس الكلهة المفتونة وأفقدها كل كرامة وكل وعى ، اهتز مصراع الباب الخارجي ، وانفتح في عنف .. واندفعت منه آدا مروعة مذهولة تشهد الموقف بعينين جاحظتين وترتجف

وجاش حقدها وطواها .. فارتمت على جلوريا ، وانشبت أظاهرها فيها ، ومضت تدفعها صوب الباب الخارجى ، وهى تجاهد نفسها ما استطاعت خشية أن يفلت منها سلطانها على أعصابها فتخنق امها بكلتا يديها .. وفجأة انطلقت صيحة .. صيحة حادة مزعجة أشبه بالعواء ، مزقت حجب الصمت الزافر .. فبهتت آدا واختبلت ، ثم أرسلت صرخة مدوية ، واندفعت هى وزوجها إلى حجرة الطفل ..

ولم تكد تدخل حتى لمحت الوسادة ، الوسادة الكبيرة ملقاة على الارض بعيدا عن السرسر ، ورأت طفلها ، طفلها الوحيد منكفئا على نفسه ، ملقى على الأرض ، والدم ينزف منه ، ففطنت إلى إهمال أمها ، وأدركت علة هذا الأهمال ، فتاه فكرها ، وانحنت على الطفل .. وحملت جثته بين ذراعيها ثم كرت راجعة وهى تضرخ في أمها وتبكي بكاء يفتت الأكباد:

– لقد قتلت ولدى ! .. انت يا اماه .. أنتِ التى قتلت ولدى ! ..

ومر الزمن ، واختفت الغانية جلوريا ، ولم تعرف ابنتها عن مصيرها أى شئ .. أما آدا فقد صهرتها مراحل عذابها ، وجعلت منها شاعرة مجيدة وامرأة منكودة الحظ تعسة ، لم تستطع أن تنسي ذكرى وحيدها إلا بالإمعان في حب زوجها الوفي الأمين وحب رسالتها وفنها ..

وهذه آخر قصيدة كتبتها بعد مأساتها ، تفزع فيها إلى زوجها ، وتحاول أن تتخلص في أبياتها من لوعة الثكل ومرارة العيش ورهبة الذكرى..

سقطت الورقة على الارض ، وهزت رجفة قلب الشجرة ! ..

هو طفلى الذى يدعونى ! ..

ارى عيونا خفية تخترق الظل وتنفذ كمسامير في حائط ! ..

هو ابنى المعبود ينظر الى ! ..

***

اشعر بايد خفية تحط على كتفي وتدفع بى نحو بئر ماؤها راكد ! ..

هو الموت الفظيع يفغر فاه محدقا الى ! ..

***

أن دعوة الحياة لتسرى في سلسلة عظامى إلىابسة وتهزها في رعدة صامتة وتتصاعد الى عقلى ! ..

هو حبى العظيم لزوجي يردنى مكرهة عن رؤيا الموت الذى اشتهى ! ..

***

لقد فارقت قدماى الارض ، ورفرف جسمي في الهواء و، وطوح بى دوار ساطع ومظلم ! ..

هو زوجي الذى ينقذنى بالرغم منى .. هو زوجي الذى يضمنى الى قلبه وقلب طفلى ، ويحملنى في سماء ساكنة صافية جديدة ، ويذهب بى ! ..

الحب في حياة الاديبه الايطإلية ماريا رومانا

صدرت منذ بضعة اعوام في إيطإلىا قصة أحرزت شهرة كبيرة وعنوانها: " هذا هو قلبى " وضعتها سيدة لم يسبق لها الاشتغال بالادب ، تدعى " ماريا رومانا " وفي هذه القصة تصور لنا السيدة حياتها وجهادها وما وقع لها أبان الحرب العالمية الاخيرة بعد ان سافر زوجها الى ميدان القتال ..

كانت هذه السيدة رائعة الحسن وفقيرة ، وكانت تحب زوجها حبا عميقا ، وكان هو أيضا يحبها ، ويخلص لها برغم انها لم تعقب له خلفا ، فلما انفصل عنها فجأة واختفيفي غمرة المجندين ، أحست الحياة حولها مظلمة وخاوية ، ولم يكفها المبلغ الزهيد الذى رصدته الحكومة لها ، فعصف بها البؤس ، فشرعت تناضل وتكافح لتعيش

وكان جمالها الفاتن يطمع فيها الكهول والشيوخ الاثرياء ، ولكنها ظلت على وفائها لزوجها أربعة أعوام طويلة ، تقاوم اغراء المال جهدها ، وتقاوم ايضا فطرتها وحواسها ، وتشتغل في المصانع عشر ساعات فيإلىوم بهمة لا تعرف الكلل..

والعجيب في هذه المرأة ، بل الشئ الخارق الذى اتسمت به والذى

قل أن شاهده انسان في شخصية انثى ، هو انها لم تشتغل لنفسها فقط ، ولم تكافح من أجل ذاتها فقط ، بل تفانت في البذل والتضحية حتى المرض والعذاب من أجل سعادة النخرين ..

ونحن نعلم أن المرأة كائنا ما كان حبها لزوجها لا يمكن أن نبذل ونضحي عن طيب خاطر من أجل أهله وأسرته ، بل أن حبها له قد يدفعها الى الاستئثار به وسلخه عن فرعه وحيازته لنفسها .. ولكن ماريا رومانا خالفت هذه السنة ، وجاهدت جهاد المستميت في سبيل اسعاد أهل زوجها ..

كان لزوجها والدة ووالد وثلاثة أخوة أطفال ، وكانت الوالدة مصابة بداء القلب ، والوالد كهلا ومشلولا ، والاطفال بائسين وتعساء .. فأحبت ماريا زوجها في أله ، ورأته رأى العين وهو غائب ممثلا وحاضرا في أهله .. فكبر عليها أن يغامر هو بحياته في ساحة الحرب من أجل وطنه ، ثم تخونه هى في أهله وعشيرته ولا تقوم نحوهم بواجبها كما يقوم هو نحو الوطن بواجهه ..

وهكذا كانت ماريا تحرم نفسها وتعطي أهل زوجها ، وتنكر نفسها وتغدق على أهل زوجها ، وتشتغل في الليل ساعات إضافية طويلة كي تنهض بعلاج حماتها العليلة وحميها المشلول . وكانت تشعر بالسعادة الغامرة كلما ذكرت انها تفوقت على فطرتها ، وتفوقت على شتى مفاتن الاغراء المحدقة بها وأرضت حبها وضميرها وارتفعت بهذا الحب وهذا الضمير الى مستوى قل أن بلغته انثى ..

وظلت تكافح وتناضل حتى انهارت قواها وأصيبت في صدرها .. فشاء القدر أن يعطف عليها صاحب المصنع الذى تعمل فيه ، وأن يأمر بنقلها إلى أحدى المصحات على نفقته الخاصة ، وأن تذهب به الاريحية الى حد أن يصرف مرتبها كاملا لاسرة زوجها .. فاستفاض هذا النبأ في حيها ، وسرعان ما أطلق ألسنة السوء .. فشاع في الحي كله أن صاحب المصنع هو عشيقها ..

وكان الحي ماهولا برهط كبير من المندينين المتعصبين المتزمتين ، فشرعوا يحقرون والد زوجها ، ويمتهنون أمه المسكينة التعسة ، ويتجنبون الاتصال بأى فرد من أفراد أسرته الذين أحسوا أنهم أشباه موبوئين ..

وترأمي هذا كله الى سمع ماريا وهو في المصح تكافح المرض وتتعذب .. فجن جنونها ، وعز عليها أن تهدر تضحياتها وأن يمرغ حبها الثابت الباذل في الوحل والطين . فأسرعت وكتبت رسالة مطولة الى صاحب المصنع تشكره فيها على أحسانه ، وتشهده وتشهد الله أن يكف عن صرف مرتبها لأسرة زوجها .. ثم غادرت المصح وهو مريضة ، وطفقت تبحث عن عمل جديد ، حتى وفقت آخر الامر والتحقت بأحد مصانع الزجاج ..

وكانت تعمل والمرض ينهشها ، ونوباته المروعة تعاودها ، وجهدها الشاق في سبيل اخفاء المرض عن زميلاتها ورئيسها يضاعف الداء في صدرها عنفا وقوة ..

وكان أهل زوجها يتفطرون شفقة عليها ، وتتمزق قلوبهم اذ يبصرون انفسهم عاجزين عن الاستغناء عن معونتها .. فيهروعون إلىها عند اوبتها ليلا من المصنع ، ويقبلونها ويلثمون يديها ، ويلتمسون إلىها أن ترحم نفسها ، وعيونهم القلقة المذعورة تحدق في صدرها المقوس الناحل وتطفر بالبكاء . أما هى فكانت تبتسم لهم وتحمل إلى الاطفال الفاكهة والحلوى ، وتضمهم الى صدرها في حنان الأم الرؤوم ، بينما السعال يقطع صدرها ، والبقع الغاشمة الفظيعة الحمراء تلوث منديلها الابيض كقلبها ، الناصع كنفسها الصافية البرئية الطاهرة

***

وفجأة وضعت الحرب أوزارها وعاد الزوج سالما ، ولكنه ما أن أشرف على بيته ، حتى تلقفته أيضا ألسنة السوء ، ووسوست له أن امراته كانت خليلة صاحب المصنع . وكان الزوج رجلا عاشقا وغيورا ، فاعتقد أن زوجته قد خانته بالفعل ، وانها لم تستطع صبرا على الفاقة وعلى بعده عنها أربع سنوات .. فصار ثائره عليها ، وانكر تضحياتها ، وأتهم أهله بالتواطؤ معها ، ثم طردها من بيته شر طرد ، وفكر جادا في الطلاق .. وعبثا حالوت ماريا الدفاع عن نفسها ، فقد كان الرجل نهبا مقسما ل

يف الخيانة ، يفكر في العذاب الذى عاناه في ساحة الحرب ، ثم يفكر في نذالة امرأته ، فيشتد سخطه وحنقه ، وتصيبه الغيرة العمياء بضرب من خبال

واساأجرت ماريا بأجر زهيد ، ورغبة في الاقتصاد ، حجرة في فندق شعبى وضيع .. وعاشت هناك شتاء بطوله في حصبة المتشردات وانصاف البغايا والمشبوهات من عابرات السبيل ، تبكي حظها العاثر وأخلاصها البائد ، وحبها الضائع ، وتنتظر حكم الطلاق . ولكن زوجها الذى كان مع ذلك يحبها ، بكته ضميره ، فراجع نفسه في عزلته ، واعتزم أن يبحث ويتحرى ليستوثق من أن زوجته كانت حقا غادرت وخائنه . وكان صاحب المصنع قد توفي ، وكانت امرأته بعد انتهاء الحرب قد باعت المصنع وغادرت ايطإلىا الى فرنسا .. فجمع الزوج الغيور ، بشق النفس ، مبلغا من المال وسافر الى فرنسا ، وظل يستفسر وينقب حتى عثر على البيت الذى تقيم فيه زوجة غريمه المتوفي . ولما صارحها بالامر الذى قدم من أجله ، استشاط غضب المرأة ، وصبت عليه جام سخطها ، وقالت له أن زوجها كان مثال الوفاء لها ، وأن ماريا كانت مثال الصدق والعفة والاستقامه والتضحية ، ثم أطلعته على رسالتها إلى زوجها ، وأعطته اياها ، ونصحته بألا يتهم انسانا أو يحكم على انسان قبل ان يتأكد ويتحقق خشية أن يثير بظلمه ذلك الانسان فيقتل في نفسه كل شعور بالفضيلة وكل ايمان بالخير ..

***

وانصرف الرجل ذهلا مشدوها .. وما أن احتوته أرض بلاده ، حتى قصد من فوره الفندق الذى تسكنه امرأته ، ثم اقتادها توا الى بيته ، ثم أقام حفلا دعا إلىه الرجال والنساء الذين وشوا بها . وأمامهم جميعا ، جثا

الرجل على الارض ، واستغفر امرأته ، وأعلن براءتهاوطهرها ، ثم أطلع الجمع على الرسالة بعد أن كاشفهم بكل ما قالته أرملة صاحب المصنع ، وأقسم على صدقه بالعذراء الطاهرة وهو يختلج ويبكي ..

وبهت القوم وأحرجوا ، ولم يسعهم الا أن يقبلوا هم أيضا على ماريا آسفين ومستغفرين ..

وكانت فرحة لم تشعر ماريا في حياتها ، فزايلتها حرقة الاتهام الباطل ، واشتد حب زوجها لها .. فاستمدت من هذا الحب النادر المنحسر الزاخر بمر فان الجميل ، قوة صرعت بها الداء الذى كاد يفتك بها ..

ومر عام وبعض عام ، وشاء الله أن يتم نعمته على ماريا رومانا ، فمنحها طفلا ذكرا كان ثمرة حبها الخالص وكفاحها الصادق وصبرها الطويل ..

تلك هى قصة " هذا هو قلبى " ، وهى قصة امرأة فذة ، تفوقت بعبقرية قلبها قبل ان تتفوق بعبقرية أدبها .. فكانت للنساء والرجال مثلا انسانيا يحتذى ..

الحب في حياة الشاعرة البولندية هيلين سيكورسكي

كانت هيلينا سيكورسكي الشاعرة البولندية الفذة تجهل مواهبها ، ولا تفكر الا في العاهة المروعة التى ابتلاها القدر بها .. فلما وقع لها هذا الحادث في مستهل شبابها ، اتقد ذهنها ، ولمعت عبقريتها ، وأبدعت شعرا انسانيا صادقا خالدا

تواكلت " هيلينا " على عصاها ، ومدت ذراعها إلسرى ، وضربت بها الهواء ، متحسنة طريقها ، متلمسة أوراق الشجر ، مشرئبة بعنقها الى القناة الكبيرة الممتدة تجاه حديقة القصر ..

كانت تسير مرفوعة الرأس ، منئدة الخطي ، محدقة الى السماء بعينيها السوداوين الواسعتين اللتين لم تعرفا نعمة النور منذ تفتحت أجفانهما على ظلمة هذه الدنيا ..

وكان وجهها مشرقا ، وشعرها المموج الجميل متناثر الخصلات على خدها الناضر ، وابتسامتها العريضة توشك أن تورق وتزدهر وتستحيل الى ضحكة ..

وطفقت تمشي حتى بلغت القناة .. فألقت على الارض بعصاها ، وأرتمت فوق الحشائش ، ولبثت فترة طويلة ساهمه شاردة ثم حنت رأسها

في لوعة وأعياء ، وتقلص ظل ابتسامتها الساحرة ، وتحدرت على خدها دمعة ..

وعادت فالتقطت عصاها ، واخذت تنكت بها الارض وتفكر ..

لماذا قذفت بها الاقدار الى هذه الدنيا ، وفي سبيل أية غاية مجهولة ولدت عمياء ، وقدر عليها أن تعيش كذلك ، بينما الناس جميعا يمرحون مبتهجين في فسحات الشمس والنور ! .. انها بنت أعظم وأغنى رجل في هذه القرية .. فلماذا لم يهيأ والدها نعمة البصر كما تفضل وأغدق عليها نعمة الجاه والثراء؟ .. كان أجدر به أن يخنقها في المهد من أن يصب عليها لعنة هذه الحياة ! ..

واهتاجت أعصابها ، وثارت ثورتها ، ولكن الفضاء .. الفضاء الشفيق الرحيم أرسل إلىها فجأة سربا من النسمات .. فتأوهت من أعماق نفسها ، وخيل إلىها أن تسبح في عالم من القبل ، فاستسلمت بجمع كيانها لقبلات النسيم .. وسرعان ما سكنت ثورتها ، وقرت أعصابها، وآمنت بالله ، واستشعرت رحمته ، وذكرت النعمة الكبرى التى أسبغها عليها ..

وتطلقت أساريرها ، وأشرق وجهها الجميل ، وهتفت : " كارل ! .. أين أنت؟ .. "

وتلفتت حولها كمخبولة ، ورفعت ذراعيها وعانقت الفضاء ، ثم مرغت وجهها في صفحة النسيم الناضر ، وطفقت تلثمه كأنما هى تغمر

وجه كارل بالقبلات ! ..

ومضت هيلينا تنكت الارض بعصاها ، وهى مطرقة برأسها ، منطوية على حلمها تحدق الى منطق صوت الماء..

وفجأة سمعت وقع أقدام خفيفة تدب على الحشائش ، فهبت واقفة، ومدت يديها الحائرتين ، وصاحت : "كارل !.."

فوثب إلىها الشاب ، وتلقاها بين ذرعيه ، وضمها الى صدره في رفق، وغمغم وهو يقبل عينيها وجبينها : هأنذا ! .. هأنذا يا هيلينا ..

وأجلسها على العشب الاخضر الناعم ، وتربع بجوارها .. فأمالت رأسها الى كتفه ، وتصاعدت أناملها المرتعشة وجعلت تتحسس في لهفة وشوق وجه حبيبها ..

وكان صامتا واجما .. فتطلعت إلىه مستغربة وقالت : ما بك إلىوم يا كارل ؟ ..

فاستضحك وقال وهو يشيح بوجهه كأنه يخشى أن ينعم النظر فيها: لا شئ .. لقد بذلت جهدى في خدمة والدتك ثم أعددت لها.. لسيدتى.. طعام الافطار .. ثم غافلتها وأسرعت توا إلىك ! ..

فانبسطت أسارير الفتاة ، ورفت اهدابها غبطة وفرحا ، وطوقت الشاب بذراعيها وقالت :

– لم تنم الدرس بالامس يا كارل ، ويجب ان نعود إله إلوم .. فتكلم .. أجبنى .. أن النور أبيض ، أعلم ذلك .. ولكن ما هو البياض يا كارل وماذا يشبه ؟

فأجاب الشاب :

– البياض يشبه الصفاء يا هيلينا .. يشبه الحلم الهادئ الجميل .. يشبه السعاده التى نستمتع بها الآن ! ..

فقالت :

– والشمس .. الشمس الدافئة تارة والمتقدة أخرى ؟ أعلم انها حمراء ، ولكنى لا أفهم اللون الاحمر .. فحدثنى عنه .. أشعر انى أحب هذا اللون من دون الالوان جميعا ! ..

فقال كارل وهو يرتجف :

– وأنا أحبه مثلك فهو كل الحياة ، وفي وسع بصيرتك ان تراه ، أن تلسمه ، في نفسك ، في صدرك ، في شبابك ، في قوة هذا الحب الذى جمع بيتك أنت الفتاة العظيمة وبينى أنا الخادم الفقير الوضيع ! ..

فقالت :

– اذن فاللون الاحمر هو الحب .. هو حب الشمس للارض ، وحب الرجل للمرأة ، وحب الانسان للخير ..

فغمغم كارل :

- وللشر أيضا ! ..

فبهتت الفتاة وقالت :

- كيف يجتمع الخير والشر في لون واحد ؟! ..

فأجاب الشاب :

- كما يجتمع الحب والغيرة في قلب واحد يا هيلينا !

فقطعت الضريرة حاجبيها ، وضمت الشاب الى صدرها ، وقالت :

- أنا أفهم الغيرة تماما يا كارل ، وأشعر أن في وسعى أن أقتلك لو حدثتك نفسك يوما بخيانتى ! ..

فقال :

- وهذا هو الشر يا هيلينا .. هذا هو اللون الاحمر الصارخ الشبيه بلون الدم ! ..

ولكنى لن أخدعك ابداً يا هيلينا ! ..

فصاحت الفتاة وهى تقبله :

- وانا لن أكون أبدا لسواك ! .. انت كل حياتى .. فحدق إلهها

فترة ، ثم قال :

– ومع ذلك فقد تتصرفين في غد عنى ! .. ان الطبيب المشهور .. العالم الفرنسي الكبير .. ذلك الرجل الذى حدثتك عنه والدتك بالامس .. سيكون هنا بعد لحظة .. وقد تقع على يديه المعجزة .. المعجزة التى يتوقعها الجميع .. قد يشفيك .. وقد تبصرين .. فترين النور ، وترين الجمال ، وترين الرجال ، وترينني أنا .. وعندئذ ..

فصرخت :

– أصمت ! .. أصمت ..

ثم أردفت في صوت أجش ، وهى ترتعد :

– أجل .. أنت على حق .. وانا مثلك .. أنا مثلك خائفة من الحياة! .. خائفة من المعجزة ! .. خائفة من النور ! .. أود ان أبصر ، وأخشي لو رأيت النور أن يسحرني جمال غير جمالك فأفقد نفسي وأفقدك! ..

فصاح وهو يكاد يبكي :

– أرأيت؟! .. أنت منذ الآن ترتعدين ! .. أنت منذ الآن تشعرين أن النور قد يعقبه ظلام ، وانه لو قدر لفتاة مثلك ان ينعم بالنور بعد الظلام فلا يمكن أن تهب حياتها لانسان معدم خامل وضيع مثلى ! ..

فتأوهت هيلينا أبدا ! ..

ولم تكد تتم عبارتها حتى رن جرس باب الحديقة الخارجي .. فأجفل كارل وصاح :

– هذا هو الطبيب ! ..

وارتمي على الفتاة ملهوفا، وعانقها عناقا حارا ثم غمغم: سيشفيك!.. أحس أنه سيشفيك وأنك تسنسيني! .. لتكن مشيئة الله .. الى الغد .. عسي ان يكون في مقدورى أن أراك غدا .. خذى طريقك من هنا ! .. على مهل ! ..

وتملص من بين ذراعيها ، واندفع وسط الاشجار .. وعندئذ وبينما هو يركض ليدخل القصر قبل أن يفطن أحد لتغيبه ، تراجع مذعورا ، وخفق لقبه آذ أبصر نفسه فجأة أمام سيدة القصر والدة هيلينا وجها لوجه!

وارتبك وحاول أن يتكلم ، ولكن السيدة العظيمة اعابت به وهى ترعد :

– قف ! .. أين كنت ؟ .. على حافة القناة ؟ .. وفي صحبة ابنتى ؟ .. إلىس كذلك ؟ .. ما شانك بها انت الخادم الحقير الوضيع ، ولماذا غادرت القصر فجأة وجئت إلى هنا ؟ .. ليست هذه هى المرة الاولى التى تحاول فيها الاتصال خلسة بابنتى ! .. لقد أثرت شكوكي ، فتربصت بك إلىوم ، وهأنذى أفاجئك معها ! .. أسرع .. أعد حقائبك حالا ! ..

وسيصرف لك الوكيل مرتبك على الفور ! .. هيا ، وأياك ، أياك ومحاولة الاتصال ثانية بهيلينا ! ..

فامتقع وجه كارل ، وغشي الدم عينيه ، وتمتم وهو يومئ بأصبعه الى باب الحديقة ويكاد يبكي :

– ولكن الطبيب أقبل يا سيدي .. وهو سيعالج ابنتك وقد يشفيها .. فألتمس منك ، بل أتوسل إلىك ، أن تصفحي عني .. ان تبقيني في القصر ولو بضعة ايام أيضا .. بضعة أيام فقط اطمئن فيها على سيدتى الصغيرة ! ..

فصاحت ربة القصر مرددة في غضب :

– أعد حقائبك حالا وأرحل ! ..

فثارت ثائرة كارل ، وهتف متحديا :

– لم أرحل ! .. سأمكث هنا ! .. بجوار القصر ! .. في كوخ احد الفلاحين ! .. وسأنتظر حتى يتم العلاج واطمئن على سلامة سيدتى الصغيرة ! ..

فرشقته ربة القصر بنظرة مستنكرة ، ثم هزت كتفيها في احتقار وقالت :

– انت وشأنك ! ..

واستدارت وذهبت لملاقاة الطبيب ..

***

أما هيلينا التى كشف لها كارل عن عالم الالوان والضواء ، وهداها الى عاطفة الحب ، وبصرها بمعنى الخير والشر فقد أحست بغتة وعلى دهش منها أن شيئا عميقا يستيقظ فيها ، وأن قوة طارئة عجيبة تستبد بعقلها وخيالها ، وتأبى الا أن تتدفق من ذهنها وتفيض .. فلم تكد تخلو بنفسها في حجرتها حتى شرعت تكتب بطريقة " برايل " هذه القصيدة الرائعة التى كانت أولى قصائدها ، والتى تغزلت فيها بطيف حبيبها ، وتغنت بربيع الحب وربيع الحياة ..

هذا هو الربيع إلىانع المشرق ..

فماذا أريد إلىوم وماذا أطلب ؟ ..

الاشجار أزهرت ، والورود تفتحت ، والسماوات تألقت ، ومن غصن كل شجرة تتهدل ثمرة ، وفي لب كل وردة تحوم نحلة ، وعلى كل سماء يتمزق غيم وتسطع شمس ..

***

أريد أن أضع قلبى على قلبك ، وشفتيك على شفتى ، كي أحس قبلاتك تنفرط في نفسي كأوراق الزهر ، وتترقرق في روحي كزرقة السمء...

دع انامك تتحرك في بطء كهمس الاسرار ، وتنساب في ليونة كليونة قوارب النجاة ، وتحتضن انامل ، كي تصب في عروقى الخامدة سيل الربيع وعصارة الحياة ..

***

أى معنى للشجرة المزهره بدون جسمك ، وأية قيمة للوردة الناضرة بدون خدك ، وأية لذة للثمرة الشهية بدون فمك ، وأية روعة لسماء الصافية بدون جبينك الناصع الوضاح ؟ ..

***

منك الربيع يتغذى ، وبك الربيع ينمو ، وقيك الربيع ينشد جماله ، ويخلد صورته الساحرة على مدى الاجيال ..

فقر عينا واهنا .. وما دمت انت رجع صدى الكون ، فلابد أن أكون انا رجع صداك ، يأيها الحبيب الذى لم ار قبله ضوء الشمس ، ولم أعرف قبله مجد الربيع

***

هو ذا العالم يندمج في جمالك اندماج البذرة في الارض ، ويسرى في كيانك مسرى الفكر في العقل ، ويتغلغل في صدرك تغلغل الحب في القلب، ويتسلل في دمائك تسلل النار في النار ..

فتعال الى وخذني .. خذني

الى مدينة الاحلام .. ان

نفسي حزينة ، ولم أجد

الراحة والفرح الا في مدينة الاحلام ...

***

انها هناك .. هناك حيث المراعى الخضراء ، والحقول الزرقاء ، وخمر الاصيل الذهبية ، ولآلئ النجوم تتلامح كالعيون وترمق وجهك يا حبيبى...

***

انها هناك .. هناك حيث النسيم يهمس ، والظل يحضن ، والشجر يخفي ، والفراش العاقل يخون الورد الزاهر ، ويفتح أجنحه ثم يطبقها عليك يا حبيبي ..

***

انها هناك .. هناك حيث الحب يلمع ، والصدق يمرح ، والثقة تغنى ، والوفاء الهادر المجنون يتدفق ويغمر وجهك ياحبيبي ..

فخذني الى مدينة الاحلام .. وسواء اكان حلمي يخدعنى أم كنت انا الذى أخدع نفسي ، فان نفسي حزينة ياربي ، وتأبى أن تموت قبل أن ترى

ولو يوما واحدا مدينة الاحلام ..

***

وفي صباح إلىوم التالى أجريت العملية لهيلينا ثم عصب الطبيب عينيها وأرقدها على الفراش في حجرة ساكنة مجللة بأستار سوداء ..

واستبد القلق بنفس الفتاة ، وتلهفت على معرفة مصيرها ، ومكثت اسبوعين طويلين ممددة على فراشها ، سابحة في ظلام وحدتها ، تفكر في كارل ، وفي المستقبل المجهول الذى ينتظرها ، دون أن يخطر على بالها لحظة واحدة ان حبيبها قد انتزع منها ، وطرد من القصر شر طرد ..

وفي ذات صباح ، فتح باب حجرتها ، ودخل عليها ابواها وبنات عمها يصحبهم الطبيب ..

وتقدم إلىها الطبيب ، وحل العصابة عن عينيها .. فرفت أهداب الفتاة ، وانفتحت اجفانها ، وطفقت عيناها الجاحظتان تحدقان الى الفضاء الحالك في شبه حيرة يخالطها ذهول ..

وخيل إلىها ان الناس حولها تتراقص كالاشباح فجعلت تنظر حتى استشفت الوجوه والقامات غائمة مذعورة ثم وقفت في وسط الغرفة تجيل الطرف في اهلها وترتعش ! .. وعندئذ وثب الطبيب ، ومد يده ، وشرع قلبها وهى تفتح عينيها لتستقبل النور :

– أماه ! .. انى أرى ! ..

فأرسلت الام صيحة مدوية ، وهلل الاب والفتيات ، وانهمرت من عيونهم الدموع ، أما الطبيب فأسرع يسدل الاستار مرة ثانية .. ولكن هيلينا أمسكت له ، ونحته عن النافذة ، واندفعت صوبها وفتحت مصراعيها في عنف ، وتركت النور يتدفق في وسط الغرفة ! ..

ولبثت واقفة تحدق الى السماء الزرقاء ، والنور الابيض الساطع .. وهى مسلوبة الحول ، طائرة اللب ، تكاد تصرعها الحيرة ، ويخنقها الفرح..

وتلفتت حولها كمن يفتقد شيئا .. وما لبثت ان أربد وجهها ، وغام بصرها ، وصاحت بغتة في صوت ممزق :

– النور أبيض ! .. النور جميل ! .. ولكن يخيل الى أنه كان بالامس اجمل ! .. لم يعد يشبه الصفاء والحلم والسعادة كما كان يقول كارل ! ..

وحدقت الى السماء فترة وهتفت :

– والشمس ؟ .. انها حمراء ولكنها مخيفة ! .. ليس في لونها ما يشبه الحب كما كان يقول أيضا كارل ! ..

وانتفضت كمخبولة واردفت :

– وهذا النسيم .. لا أرى فيه شيئا ! .. أين قبلاته ؟ .. وأين روحه؟.. وأين سحره الشائق العجيب ؟ ..

وصرخت :

– أماه انى أرى النور ولكنى لا أرى الحياة ! .. لا أرى الجمال الذى طالما حلمت به والذى كان ينفجر من صوت كارل مدويا مجلجلا كالنبوع!.. المعجزة لم تقع فأنقذينى .. أنقذينى يا أماه وابعثى الى بكارل !

فامتقع وجه الام ، وخشيت على ابنتها وقد انقذت ، أن تعود فتقع تحت تأثير حبها الوضيع .. فصاحت بها توقظ عقلها وتستنهض كرامتها :

– عار عليك ان تعشقى مثل ذلك الرجل ! .. لاسيما الآن .. الآن وقد أصبحت مبصرة ! .. لقد طردته ! .. طردته منذ أسبوعين ! ..

ففغرت هيلينا فاها كبلهاء ، واحتقنت عيناها ، وضخصت الى أمها ولم تتحرك ..

وفجاة مدت ذراعيها كما كانت تفعل بالامس ، وضربت بهما الهواء، واتجهت صوب الباب وصرخت :

– اذن فالوداع ! ..

ثم استجمعت قواها ، وغافلت الجميع واندفعت نحو حديقة القصر وهى تردد كمعتوهة :

– كارل ! .. كارل ! ..

وانطلق الجميع في أثرها حتى جاوزوا الحديقة ويلغوا القناة .. وهناك بين الاشجار الباسقة ، وحول العشب الاخضر الناضر ، وعلى حافة

القناة الكبيرة ، أبصروا هيلينا تلطم صدرها بقبضتيها ، وتبكي بكاء مرا ، وتهم عزمها ، واذ ذاك اصطفقت اغصان احدى الاشجار ، وبرز من خلالها كارل واندفع نحو الفتاة وصاح :

– انا كارل يا هيلينا .. لقد طردونى ، ولكنى بقيت معك ! .. بجوارك ! .. في كوخ أحد الفلاحين .. حتى علمت إليوم أنك شفيت فأسرعت وانتظرتك هنا ! .. فلماذا ، لماذا تنشدين الموت وقد ردت إليك نعمة البصر والنور ؟! ..

فتحولت إليه تاملته وهى ترتجف .. تأملت كل شئ فيه : جماله الرائع ، وشبابه الساحر ، وعينيه الزرقاوين الفاتنتين .. وراءه هو الآخر جمالها الخلاب واشراق عينيها المبصرتين ، فجثا عند قدميها وردد : " لماذا تطلبين الموت يا هيلينا ؟ .."

فغمغمت قاله وهى تتأمله :

– لأنى كنت برغم المعجزة ما ازال عمياء ! .. كنت ما ازال في حاجه الى نور القلب يا حبيبى .. أما الآن .. الآن وقد رايتك يا كارل ..

وعقد الفرح لسانها ، فالتفتت الى أمها وقالت ، وقد انفجرت من عينيها الدموع :

– اعطنى .. اعطنى كارل يا أماه ! ..

فتمزق قلب الام ، وذابت كبرياؤها تحت تأثير حنانها فهتفت من

أعماق قلبها :

– خذيه يا بنيتى فهو زوجك ! ..

فارتمت هيلينا على حبيبها ، وانكمشت بين ذراعيه وطفقت تحدق إله وتقبله في نشوة وجنون ..

وعندئذ .. عندئذ فقط وقعت المعجزة الحقيقية ، وارتد الى الفتاة بصرها ، ورأت في ضوء الحب فتنة النور ووجه الحياة ! ..

***

وهذه هى القصيدة البديعة التى كتبتها هيلينا سيكورسكي بعد أن اقترنت بحبيبها كارل . وهى قصيدة تمجد فيها الحياة الزوجية متى جمعت بين قلبين مخلصين طاهرين :

لم أعرف سواك في حياتى يا حبيبى ! ..

كنت زهرة على وشك الذبول ، فضممتنى الى صدرك وغمرتنى بعطفك ، وأغدقت على حنانا كالندى ، وحبا ساطعا كشعاع الشمس !..

كنت حبيبى ، فأصبحت حبيبى وزوجي واخى ! ..

يا لنعمة الاخوة تؤلف بين قلبين في ظل الزواج ! ..

انى لاشعر باة أفكارى ، وعواطفي ، ودمائى ، وكل شئ ينبض في ،

قد استقر فيك يا زوجي ، وبات قطعة من فؤادك يا حبيبى ، وشطرا من روحك يا أخى ! .. انت أخى في القلب والجسد .. انت أخى في البؤس والفرح .. انت اخى في الظلمة والنور ! ..

ولقد اخترتك وحدك لنجتاز معا نفس الطريق ! .. وهيلينا أسند رأسي الضعيف الى كتفك ، وأضع يدى الصغيرة في يدك ، وأحدق الى المستقبل المجهول بعين لا تعرف الخوف ! ..

وكيف يمكن أن أخاف وانت معى ، وفيض اخلاصك يملأ ضلوعى ، وسحر ماضينا الجميل يتصاعد كالنغم العذب ، ويذوب في قرارة أذنى

انى لاستمع الى هذا النعم العظيم ، ولا أستطيع أن أحبس دموعى

لتنهمر الدموع صلاة شكر لله على اسعادى ! :

هذا هو دمعى الطروب وهذا هى غمغمة صلاتى ..

يا ألهي ، لقد وهبتنى رجلا يهمينى ، وعقلا يرشدنى ، ونفسا ترعانى ، وفراشا أبيض طاهرا يضم جسدا نقيا انا له وهو لى ، وانا منه وهو منى!

ذلك هو دمعى الطروب وهذه هى غمغمة صلاتى .. يا إلهي ، لقد وهبتنى رجلا يحمينى ، وعقلا يرشدنى ، ونفسا ترعانى ، وفراشا أبيض طاهرا يضم جسدا نقيا أنا له وهو لى ، وانا منه وهو منى ! ..

ذلك هو زوجي وحبيبى وأخى .. زوجي للعمر بأكله وللحياة

بأسرها، ولما بعد العمر ، وبعد الحياة ، وبعد الموت أيضا ! ..

فاحفظه لى يا إلهي ، وأحفظنى له حتى نلتقى .. وسنلتقى معا في لحظة خاطفة امام وجهك الرائع يا ألهي سننفض اكفاننا معاً ، وننفض ترابنا معاً ، ونتقدم إليه هاتفين مهللين ! ..

فامتحنا في تلك اللحظة الخاطفة نصيبنا .. امنحنا في تلك اللحظة الفاصلة ثوابنا .. وجد علينا وعلى أولادنا بنعمة الخلود الابدي في حبك الاسمي ، وفي ذاتك السرمدية يا الله ! ..

الحب في حياة الممثلة ماريا بترون

وقعت هذه الحادثة الغريبة في عهد القيصر اسكندر الثانى ، وكنت حديث روسيا كلها . وقد أشار إلىها المؤرخ الفرنسي جاك موران في كتابه عن حياة الروس في عهد الفياصرة "

كانت الربح تزار ، والرعد يقصف ، ووميض البرق يخطف الابصار ، ومدينة بطر سبرج ساكنة راقدة هامدة ، ينهمر عليها المطر كسيل ليس له من نهاية ..

وكان المستشفي الكبير الواقع في أحدى ضواحيها ، منطويا على نفسه ، منكمشا في عزلته ، جائما فوق ربوة عإلىة تهزه الريح ، ويضربه المطر من كل صوب ..

وكان في أحدى حجراته شاب جميل الصورة ، أسود الشعر ، واسع العينين ، ملتهب الوجنتين ، ممددا على فراشه ، ينظر من نافذة صغيرة الى السماء المكفهرة ، وبعض شفتيه ويتلوى ، ويوشك أن يصرخ ويبكي من فرط الالم ..

وأجال الطرف حول ، وهو بان يدق الجرس ويدعو اللمرضة لاسعافه .. ولكنه هز رأسه يائسا متحسرا ، وآثر أن يتحمل الالم بمفرده

ولا يزعج في مثل هذه الساعه المتأخرة من الليل اى انسان ..

واختلج بغتة ، وأرهقه جهد المقاومة والاحتمال ، فلم يستطع أن يكبح المه ، وانفجرت الدموع من عينيه ..

وظل يبكي وفكره عالق بالمه ، حتى زايلته نوبة المرض فأرسل زفرة ثم انكفأ على نفسه ، خائر الاعصاب ، محطم القوى..

ولبث مستغرقا في نشوة الراحة لحظة ، ثم فتح عينيه ، وسرح البصر في الغرفة ، ومد ذراعه في رفق ، ودسها تحت وسادته ، وانتزع صورة صغيرة ماكاد يتاملها حتى أشرق وجهه ، وأبرقت أساريره ، وارتسمت على شفتيه ابتسامه عذبة قريرة هانئة ..

وكانت الصورة لفتاة رائعة الجمال ، ذات شعر مموج متهدل ، وعينين مرحتين ضاحكتين ، وجبهة عريضة ساطعة وفم صغير ناتئ تلمع ثناياه البراقة ، ويشبه ثمرة شهية أو زهرة متفتحة ..

وطفق الشاب ينظر الى الصورة ويرتجف ..

وغالبته عواطفه ، فقبل الصورة قبله طويلة محمومة ، ثم أجهش ثانية بالبكاء ..

أين هى ؟ .. أين سونيا الفاتنة التى سلبت لبه ، وغزت قلبه ، وأيقظت عقله ، وأحالته بين عشية وضحاها من انسان خامل مغمور الى موسيقى نابغ مبدع يشار إليه بالبنان ؟ .. أين المغنية العظيمة والفنانة

الموهوبة والمرأة التى في مقدورها وحدها أن تهبه القوة والشفاء والحياة؟

أجل .. انها خياله ، في حالمه ، في عمق اعماق نفسه ، ولكنه يريد ان يراها ، يريد ان يلمسها ، يريد ان يودعها ، يريد أن يتوسل إلىها أن تمنحه بيدها المعبودة الراحة الكاملة والشيفاء الابدى ..

وانجاب طيفها بعض الشئ عن ذهنه .. ومثل امامه طيف والدته العجوز ، فتمزق قلبه شفقة ولوعة .. ولكنه ما ان ذكر مرضه ، وفكر في حالته ، ونظر الى بدنه الواهن الخائر الهزيل ، حتى عاودته شجاعته ، فهتف من اعماق نفسه وهو ينتفض : كن رجلا يا فيدور ! تفوق على ضعفك ، وتفوق على جبنك ، واحتقر الحياة وانبذها فهى سلسلة آلام فظيعة لا جدوى لك من احتمالها ما دام الموت المحتم يكمن خلفها ، ويقف لك بالمرصاد ! ...

ولم يروعه شبح الموت .. بل روعه شعور الخوف .. خاف أن ترفض سونيا ما سوف يلتمس إليها أن تقوم به .. خاف ان تمتنع عن زيارته .. خاف أن تضعف وتحجم وتستخذى وتتركه فريسة هذا الالم الهائل الذى لا يطاق !

وتحامل على نفسه ونهض من فراشه ، ودنا من النافذة وطفق يحدق الى السماء الحالكة ، والمطر المنهمر ، والجليد المتساقط على الربوة العإلىة ، والنور الخافت المنبعث من محطة الضاحية ، والمتراقص عن بعد كبصيص الامل المنشود ..

وفجأة هلع قلبه ، وانقدت عيناه .. اذ طرق سمعه صوت زحافة صغيرة يصهل جوادها ، فاستجمع مدخر قوته ، واتجه يخطى وئيدة صوب الباب ، وهم بأن يفتحه .. وعندئذ ترامي إلىه الصوت الساحر الذى يجليجل كأجراس العيد ، فلم يصدق سمعه ، وأوشك من فرط الفرح أن يهوى على الارض ، ولكن الباب فتح في تلك اللحظة ودخلت منه الممرضة مصحوبة بأمه العجوز وسونيا ..

وأخذ الفرح بمخنقه ، فاستند الى حافة السرسر ثم أسرع فتمدد عليه خشية أن تفاجئه نوبة المرض فتصرعه وتحول بينه وبين توديع سونيا .. غير أن النوبة لم ترحمه ، وانتهزت فرصة الاجهاد الذى حل به ، فناءت عليه بغتة ، فطفق يصرخ ويتلوى ويجأر ، وسونيا تضمه في جنون الى صدرها ، وأمه العجوز تولول وتندب حظه وحظها ، والممرضة الملهوفة تسرع الى نجدته بحقنه من المسكن الذى أشار إلىه الطبيب ..

ولم تستطع الام رؤية ابنها يتعذب على هذه الصورة ، فأغمي عليها . فحملوها الى غرفة بعيدة ، وأبوا إلا أن تظل فترة طويلة بمعزل عن ابنها ، وتركوا سونيا في حجرة المريض تفرج عنه ، وتسعفه ، وتمضي الليل بجواره تحاول أن تهدئ من حدة ثورته ..

وفتح فيدور عينيه المتقرحتين ، ونظر الى سونيا وغمغم :

– أين أمي ؟ ..

فأجابت :

– انها تستريح في الغرفة المجاورة

فاستوى المريض على فراشه ، وحدق في الفتاة المعبودة التى يعقد عليها كل أمله ، ثم تناول يديها وقبلهما في خشوع ، ثم استنهض ميت قوته ، وقال في صوت هادئ غائر أجش ، وهو يحضن الفتاة وهى تهدهده بين ذراعيها الرقيقتين كأنه طفلها : اصغى الى جيدا يا سونيا .. لولاك ما كنت شيئا مذكورا .. أنت التى قدرتنى ، ورفعتنى ، وعنيت بصوتك الساحر الحانى فغنتها معك روسيا بأسرها ! لقد بعثتنى من الظلمة الى النور، من ظلمة الخمول الى نور المجد ، ومن ظلمة القلب الى ضياء الروح!.. لقد منحتنى النعمتن العظيمتن اللتين يتهالك عليهما الناس : المجد والحب، فأصحبت بفضلك انسانا يحالفه القدر وتحسده الآلهة ! .. ولكن القدر يا معبودتى لا يحالف الا ليغدر ، والآلهة لا تعطي الا لتأخذ .. ولقد أبت تلك الآلهة الغاشمة الا أن تأخذ منى فجأة كل شئ وتحرمنى من كل شئ ! .. لن استطيع أن أتروج .. ليس في وسع القدر أن يبدل حكمه وأن يهبك لى ويهبنى لك ! .. يجب أن تموت سعادتنا قبل أن تولد ، ويجب أن تموت عبقريتى قبل أن تنمو وتؤتي ثمارها الخالدة ! .. ذلك هو الحكم المرصود لى ! ..

فصاحب سونيا وشعرها المموج يهتز ، وعيناها المرحتان تفيضان بالثقة والامل : ولكنك ستشفي ! .. لابد أن تشفي ولابد أن أمثل الدور الاول في مسرحيتك الغنائية التى تم أعدادها ، ولابد أن أكلل هامتك بالمجد والنصر ..

وأردفت وهى تبتسم لترفه عنه :

– لقد كنت اراجع دورى بالامس مع والدتك .. لم تنس تلك المرأة الطيبة انها كانت هى الاخرى ممثلة ومغنية شهيرة .. أؤكد لك أن صوتها ما يزال بديعا .. لقد اختطفت منى الكراسة ، وشرعت تمثل وتغنى دورى ، وتمدنى بالنصائح والارشادات ، وتؤدى الحانك في دقة وحرارة وحماسة أدهشتنى .. انها فنانة بالفطرة ولولا شيخوختها لنصحتها بالعودة الى أضواء المسرح ! ..

فتمتم فيدور :

– لقد أصبحت امى هيكل الفن العظمى .. أما أنت يا سونيا فروحه ولحمه ودمه !

وأناد لحظة ثم رفع إلىها بصره الحاد ، وقال في صوت عميق وهو يواجه عينيها المرحتين :

– وأما أنا .. أنا الذى كنت أثق في نفسي ، وفي حظي ، وفي نجمي ، وانظر الى المستقبل بعين الفاتح الظافر ، فقد انهارت كل أحلامى يا سونيا، وقضي على القضاء المبرم !

فارتعشت الفتاة ، وحملقت فيه مستفسرة . فقبض على يدها وصرخ وقد اندلعت عيناه وشاع في قسماته إلىأس والذعر : لن أعيش يا سونيا !.. الموت يتربص بى ! .. الموت يحلق على ! .. الموت يطوينى منذ الآن

بين أجنحته وان كنت لا أعرف ساعتى ولا اللحظة التى سألفظ فيها النفس الاخير ! ..

وانحنى عليها وهمس في أذنها وهو يختلج : أتعلمين ما هو اسم المرض الذى أشكو منه والذى اتفق في تشخيصه جميع أطباء المستشفي ؟ .. انه السرطان .. أجل .. أنا مصاب به .. مصاب به في معدتى ، ومن المحال ، من المحال أن أشفي منه ! .. وسواء أجريت لى عملية جراحية أن عولجت بالعقاقير ، فموتى محتم يا سونيا .. ولن أخرج من هنا الا الى القبر ! ..

فجحظت عينا الفتاة ذهولا ورعبا وحاولت أن تتكلم ولكن فيدور استطرد صارخا : الموت لا يخيفنى ولكنى لا أريد أن أتألم ! .. لا يمكنك تصور الالم الذى أعانيه .. إنه ألم ممزق ساحق فظيع .. أية فائدة من تحمل هذا الامل ما دام الموت يكمن في ثناياه ؟ .. أية فائدة من تحمل هذا الألم ما دام الموت يكمن في ثناياه ؟ .. لو أنى كنت واثقا من شفائى ، ولو بعض الثقة ، لرحبت بأقسى الآلام عن طيب خاطر وكنت سعيدا .. ولكنى يائس من الشفاء ، وجاهل بالساعة التى سيهبط فيها الموت على ، فأنا لا أريد أن أظل فريسة لهذا الالم المروع حتى أموت .. كلا .. لا أريد ان أصبر ولا أريد أن أحتمل .. ولهذا كتبت إلك ودعوتك .. دعوتك وحدك .. ما كان يجب أن تصطحبى أمي يا سونيا ، وكان عليك أن تأتى بمفردك . ولكنى أشكر الله واحده لانها ليست بيننا .. فاصغى إلى الآن يا سونيا ولا تضعفي .. شجعينى ولا تخذلينى اخنقى الحب والرحمة في قلبك وساعدينى ، بل انصتى لصوت العقل وأعلمى أن الحب والرحمة يقبضان

عليك بأن تعجلى بموتى وتنقذينى ! ..

وحدق إلىها تحديقا ثابتا ، وأردف :

– هل جئت بالحقيبة الصغيرة التى طلبتها منك ؟..

فتلفتت سونيا حولها كمخبولة ، وأومأت بأصبعها الى الحقيبة التى كانت قد ألقت بها في أحدى زوايا الغرفة عندما دخلت .. ثم أشرق ذهنها بغتة ، فاندفعت ، واختطفت الحقيبة ، وصرخت :

– أن مفتاحها معك .. ماذا يوجد بداخلها ؟ .. أجبنى والا فلن أسلمك أياها أبدا ..

فهتف فيدور من اعماق قلبه :

– الرحمة يا سونيا ! .. لقد شاهدت عذابى ، فاذا كنت حقا تحبيننى فلا تعترضي طريق خلاصي ..

فضمت الحقيبة الى صدرها وتمتمت وهى تزفر :

– ابدا .. أبدا .. هذا محال .. أم مسدسك في هذه الحقيبة ولا ريب.. وأنا لن أعطيك أياها مهما فعلت ، ولن .. لن أقتلك بيدى ..

فصاح فيدور :

– أحذرى فقد يفوت الوقت وقد تستفيق أمى أو قد تدخل لغرفة

احدى الممرضات . أعطنى الحقيبة اذا كنت حقا تحبيننى ..

فرددت وهى تهدر :

– أبدا ..

فقال بصوت حازم قاطع وهو يقطب حاجبيه :

– اذن فسانتحر بأى شئ .. بأية وسيلة .. سأنتحر بعد رحيلك وسأموت وأنا أكرهم وألعنك ..

فانخلع قبل سونيا ، وارتمت على السرير .. وقالت متوسلة متضرعة وهو تنفجر بالبكاء:

– أرحم نفسك وارحنى .. هذا فوق طاقتى ، بل فوق طاقة البشر ..أنت في متقبل عمرك ومن المحتمل أن تشفي .. فثب إلى رشدك ولا تياس

فأشار بيده نحو الباب وقال وهو يرتعش :

– أخرجي ..

وفاض سخطه واستنكاره ولوعته ، فناء عليه المرض ، وأصابته نوبة مفاجئة طاغية ، فعض بأسنانه على منديله ، وأمسك بطنه بيديه ، ومضي يئن ويتلوى ، ثم طفق يصرخ ويستغيث ، وهو محتقن الوجه ، زائغ العينين، مفغور الفم ، شبه معتوه .. فجن جنون سونيا ، وملكها الذعر وتراجعت، ثم دخلت الام العجوز في صحبة الطبيب وبعض الممرضات ، متوكئة على

عصا .. وصاحت وهى تضرب صدرها بقبضتيها وتبكي :

– ولدى .. ولدى ..

وأحاط الجميع بفيدور ، وحاولوا أن يسعفوه ، ولكن النوبة كانت ساحقة ، والمقاومة شديدة وبائسة . أما سونيا فلم تكد تخلو بالطبيب ، وتضيق عليه الخناق ، وتستوثق منه أن فيدور مصاب حقا بذلك الداء المروع ، حتى هالها عذاب حبيبها ، هجس في روعها ان تترك له الحقيبة كي ينقذ نفسه وينتحر . ولكن الام العجوز التى اعتقدت أن في الحقيبة فطائر وحلوى صنعتها سونيا لفيدور ، تحولت صوب الفتاة واختطفت منها الحقيبة وطلبت إلىها أن تفتحها .. فارتعدت فرائص سونيا خشية أن تبصر الام المسدس ، ونظرت الى فيدور .. نظرت إله وهو يجأر ويبكي ، فتقطع فؤادها ، ولم تطق أن تراه وهو يتعذب على هذه الصورة .. فتاه عقلها ، ودنت منه وهى في شبه لوثة من جنون ، وهمست في أذنه :

– أعطنى المفتاح ..

فناولها أياه ملهوفا ، فأسرعت واستردت الحقيبة من الأم العجوز وفتحتها وانتزعت منها المسدس ، وفي مثل لمح البصر أو ومض البرق ، رفعت ذراعها وأطلقت النار على فيدور ..

وصرخت الام العجوز وهى ترتمى على سونيا وتنشب أظافرها في عنقها

– قتلت ولدى .. قتلت ولدى ..

فصاحت سونيا :

– قتلته لانى أحببته .. أحببته أكثر من حياتى وأكثر منك أنت امه!

وخارت قواها فسقطت على مقعد مغشيا عليها ..

***

وقبض على سونيا ، وأودعت السجن ، ثم بدأت محاكمتها .. وكانت نفسية الام العجوز قد تبدلت خلال هذه الفترة تبدلا تاما .. أدركت وهى ترى الخطر الذى يهدد حياة الفتاة ،أن سونيا لم تقتل فيدور الا بدافع من الحب والرحمة ، وانها بهذه الجريمة الصادرة عن القلب والعاطفة قد غامرت بشبابها وفنها ومستقبلها وحياتها كي تنقذ فيدور من آلام مبرحة وحياة فظيعة كان هو نفسه يتوق ويسعى الى الخلاص منها ..

وذكرت عذاب ولدها ، واستشعرت الراحة الابدية التى انتقذته بفصل سونيا ، فعطفت على الفتاة ، وزايلها حقدها عليها ، وأصبحت ترى فيها روح ابنها ، وطيفه ، وصداه ..

وأحست على دهش منها أن ابنها لم يمت ، وأنه حي بروحه وفنه في شخص سونيا .. فأحبت الفتاة أضعاف ما كانت تحب وحيدها ، وهالها أن تفقدها هى أيضا ، فاستجمعت كل قوى حسرتها ولوعتها وحبها ، وآلت على نفسها أن تفعل المستحيل لتنقذ سونيا ..

ونوديت لتادية شهادتها ، فلما مثلت أمام المحكة اذهلت القضاء

بالموقف العجيب الذى وقفته . لم تحمل على الفتاة ، بل دافعت عنها ، والتمست لها الرحمة ، ومضت تقول وتصرخ انها هى أم القتيل تفهم نفس القاتلة ، وسلامة نيتها ، وتصفح عنها من صميم أمومتها ومن أعماق عذابها ..

وبهت القضاء ، ولكنهم أبوا أن يتأثروا .. روعتهم الرحمة في مثل هذا الموقف ونبذوها لئلا تعتبر سابقة مشجعة .. فاتهموا سونيا بالقتل العمد مع سبق الاصرار وأدانوها وحكموا عليها بالموت ..

ووقع الحكن على الام العجوز وقع الصاعقة ، وأحست أنها على وشك أن تفقد كل شئ : صورة ابنها ومجده ، وجهاده ، وآيات عبقريته الممثلة في ذهن سونيا . فحزمت أمرها ، واعتزمت ان تذهب الى القيصر نفسه ، وأن تطلب إليه ان يضع الرحمة الإلهية فوق العدل البشرى

وكان اهم ما يشغل الاوم فوق رغبتها الصادقة في انقاذ حياة سونيا ، هو أن تخرج الفتاة الى النور لتستطيع أن تستطرد جهاد فيدور ، وتؤكد نبوغه ، وتعلن عن عبقريته ، وتؤدى الدور الاول في المسرحية الغنائية الوحيدة التى كتبها قبل مرضه والتى اجل تمثيلها بعد أن تم أعدادها ..

وكانت الام العجوز تعتقد اعتقادا راسخا .. اعتقادا متعصبا عنيدا يشبه الايمان ، أن هذه المسرحية ستخلد أسم ابنها ، وانها كي تظهر في الحلة الفنية الخليقة بها ، وتحدث في نفوس الجماهير والنقاد الاثر المنشود منها ، يجب أن تكون سونيا على رأسها ، تؤدى الدور الاول فيها ، وتبرز

بسحر صوتها ، وفتنة أوضاعها ، ودقة تمثيلها ، كل ما حوته المسرحية من حقيقة وفن وجمال ..

فهذه الغاية العظيمة المزدوجة : انقاذ حياة سونيا وتخلد ذكر فيدور ، هى التى كانت تضرم في نفس الام العجوز ، وتلهب عزمها ، وتحفز ارادتها ، وتدفعها الى التقدم بخطي ثابتة نحو البهو الفسيح الذى كان فيه القيصر ينتظرها ..

وكان يحكم روسيا في ذلك العهد ، أى في عام ١٨٦٢ ، القيصر اسكندر الثانى .. وكان رجلا واسع الذهن ، كبير القلب ، ألغى الرقيق واعتق العبيد ، وحاول ان يستكمل رسالة بطرس الاكبر وأن يجلب الى بلاده حضارة الغرب ..

وكان يعرف الام العجوز حق المعرفة ، ويذكرها أيام كانت مغنية شهيرة ، وممثلة ذائعة الصيت ، تحمل اسم روسيا وفنها في مختلف اقطار العالم المتمدين .. فلما دخلت عليه ، رحب بها ، وقربها إليه ، وشرع يستمع لها ..

وبذلت الام العجوز من ماء قلبها وذهنها وروحها ، ما شاءت لها عزيمتها الراسخة ، وأملها العتيد ، ولوعتها الحارقة ، ولكن القيصر لم يتحرك ..

بكت وانتحبت وتوسلت ، ولكن القيصر لم يتاثر ..

جثت أمامه على الارض ، وقلبت قدميه ، ولبتهما بالدموع ، ولكنه اشاح عنها بوجهه ولم يتكلم ..

وكان يستهول فكرة الرحمة بمجرمة تحدت مشيئة الله واستعجلت حكمه ، كما كان يستهول اعتراض القانون الذى ينص صراحة على ان القاتل المتعمد يجب ان يقتل .. فرفه رأسه فجأة ، وتأمل المراة المسكينة المنسحقة تحت قدميه وقال :

– ليس في مقدورى ان أخفف تلك العقوبة العادلة يا سيدتى .. كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك هو السماح لسونيا بأن تغادر السجن وتظل حرة طليقة شهرا واحدا يمكنها في خلاله أن تمثل دورها في المسرحية التى كتبها ولدك .. انها مغنية وممثلة عظيمة ، وأنا أفهم أن فنها الخارق سيعاون على ابراز الجوانب الرائعة من مسرحية موسيقى روسي نابغ .. فمن أجل الفن وحدة ، ومن أجل مجد ولدك ، وفي سبيل تخليد ذكراه ، أهبك هذه المنحة التى هى أقصي ما يمكن لحاكم في مثل هذا الموقف أن يعطيه .. طاب يومك يا سيدتى

ونهض القيصر ، فنهضت الام العجوز ، ساهمة شاردة نائهة يسحقها امل خائب ويحفزها أمل جديد أخير ، وتبعث الجندى الذى أمره القيصر بان برافقها ، وذهبت في صحبته الى السجن لتطلق سراح سونيا فترة الاجل المحدود ..

ولكنها ما كادت تدخل الحجرة الضيقة المظلمة وترى الفتاة حتى

ذهلت وانهار أملها .. ابصرت سونيا غائرة العينين ، شاحبة الوجنتين ، ضعيفة هزيلة خائرة ، ممدده على فراش أشبه بمحفات الجرحي ، وقد تحطمت أعصابها وزايلها كل ما كان في شبابها الغض من قوة وحيوية ونشاط ..

وتفطر فؤاد الام العجوز حزنا عليها .. فلما انهت إلبها راى القيصر، ابتسمت الفتاة ابتسامة ممزقة ، وأشارت الى بدنها المتضعضع ، وعز عليها ألا يكون في وسعها أن تخدم بفنها ذكرى حبيبها .. فاختلجت اختلاجا عنيفا ، وانفجرت من عينيها الدموع ..

وخرجت الام من السجن ، وقد اسودت الدنيا في عينيها ، وعراها من فرط إلبأس شبه خبال .. أين تجد المعنية والممثلة العظيمة التى في مقدورها أن تنقذ مسرحية ابنها ، وتضرم من يخلقها ، وهى الآن هيكل في حاجه الى اللحم والدم والروح .. فمن أين تجيئها بالروح ، وكيف تنفث فيها الحياة ، وبأية وسيلة تبرزها الى النور بحيث تتالق من خلالها عبقرية ابنها الذى يجب الا ينسي ، ويجب ألا يموت ! ..

واستعرضت في ذهنها جميع اسماء المغنيات اللامعات ولكنها رأت أن أقدرهن واشهرهن اعجز من ان تؤدى الدور العظيم الذى كانت ستؤديه سونيا ..

وخشيت على المسرحية من السقوط ، بل خشيت أن تهمل اهمالا نهائيا تضيع معه ذكرى ابنها ، فارتعدت فرائصها ودب فيها جنون إلبأس

والحب ، واستحال هذا الجنون في عقلها الى أردة عاتية اتخذت هى نفسها مظهر جنون آخر أذهلها وروها وفتنها ..

أجل ، قام في نفسها أن تنقذ هى البقية الباقية مما يمكن أن تنقذه!

قام في نفسها ، وهى العجوز المشرفة على السبعين ، أن تغالب ضعفها ، وتغالب سنها ، وتستعيد مجد شبابها ، وتمثل هى وتغنى الدور العظيم الذى كانت ستقوم به سونيا

ولم تتردد وقصدت من فورها ادارة المسرح ، وصارحت المدير بعزمها.. ثم عرضت عليه من مالها الخاص مبلغا كبيرا يعوض عليه خسارته فيما لو قدر للمسرحية السقوط ..

وخيل الى الرجل انها قد جنت .. ولكنها كانت مثال الارادة والعقل. فما زالت به تلتمس إليه ، وتلح عليه انها هى التى نظمت الحفلة ، وهى التى جمعت أفراد الفرقة ، وهى وحدها المسئوله عن أخراج مسرحية ابنها..

وتم الاتفاق واعلنت الصحف أن المغنية والمثلة القديمة العجوز " ماريا بتروف " ستقوم بالدور الاول في مسرحية " عذراء الربيع " التى وضعها ابنها الموسيقى " فيدور بتروف" وستحل محل الفنانة الشابة الموهوبة " سونيا ايفانوفنا " التى أحبت الموسيقى وقتلته ..

واستغرب الجمهور هذا الحدث العجيب واستملحه ، فتراحم على المسرح مدفوعا بعامل الفضول ، فبيعت التذاكر كلها في يوم واحد ..

وأبلغ القيصر النبأ ، وأدرك أن عذاب السجن قد أرهق سونيا وحال بينها وبين تأدية دورها ، فراق له أن يشهد الام العجوز وهى تمثل دور الشابة ، فحجز في المسرح مقصورة أمامية دون أن يعلن عن شخصيته

وجاءت إللة المنتظرة ، وغص المسرح بالنظارة ، ورفع الستار ، وبدأ التمثيل ..

وما أن ظهرت الام العجوز ، مكحلة العينين ، مطلبة الخدين ، مخضبة الشعر ، تتهادى وتخطر كأنها صبية في العشرين ، حتى تململ الجمهور وانبعثت منه دمدمه واضحة أوشكت أن تطفي على صوت المغنية .. ولكنه سرعان ما هذا وصمت ، واستمهل الام العجوز تفضلا عليها ، وامتحانا لقدرتها ، واحراجا لها ..

ومضت ماريا بتروف تصطنع عواطف الشباب ، وتمثل وتغنى لأول مرة منذ ثلاثين سنة ، فاضطربت بالرغم منها ، وتعثرت ، وتلعثمت ، ومأزج الشذوذ انغامها .. فأهاب بها الجمهور فجأة أن تنتبه ، فتضاعف اضطرابها ، فقابلها على الفور بصفير السخرية والاستهزاء ..

وظل الجمهور يصفر وهى تمثل .. وظل يضحك ويصيح وهى تغنى

وأحست المرأة التعسة أن الدوار يطوح بها ، وأن الفشل الذريع يطوقها ، ويوشك أن يقضي في لحظة واحدة على حياتها وعلى فن ابنها .. فصارعت ضعفها جاهدة ، واتخذت من الضعف قوة ، وراحت تمثل وتغنى في حماسة مشبوبة لم تعهدها ابدا في نفسها من قبل ..

وفجأة ، لمع صوتها كالبرق ، وقصف كالرعد ، وهدر كالموج ثم تمايل وتراقص وتثنى ، ثم ترقرق كالماء ، وانساب كالهواء ، وغمغم كخفيف أوراق الشجر ، ثم تماسك وتدافع وتعالى ، وانتهى في المقطع الاخير من الاغنية بصرخة يأس صادقة ممزقة تشبه قعقعة الاخشاب في النار .. فذهل الجمهور وضج بالهتاف .. ثم تعالت صيحاته المهللة ، وطفق يلقى بطاقات الزهر على المسرح ، وهو يحيي العجوز النابغة ، ويهتف باسمها واسم فيدور ! ..

وأسدل الستار على الفصل الاخير وسط عاصفة من التهليل والهتاف أثارت أعجاب وحماسة القيصر اسكندر الثانى ، فنهض لفوره من مقصورته ، وكشف عن شخصيته ، وطرق باب الممثلين ، ودخل مقصورة ماريا بتروف ..

وما أن رأت الام العجوز القيصر نفسه يقبل عليها مهنئا حتى ارتمت عند قدميه وقبلت يديه ، وصرخت من أعماق قلبها تنشد استكمال سعادتها وجهادها :

– لقد انقذت انا مجد ولدى ، فانقذ انت يامولاى حياة سونيا ! .

فتاملها الرجل ، وتفطر قلبه شفقة عليها ، فمد ذراعه وأنهضها ثم حدق إليها طويلا ، ثم قال في صوت هادئ ثابت عميق :

– لقد قمت بمعجزة خارقة يا ماريا ، ويجب أن أكافئك .. لن تظل سونيا في السجن أكثر من خمس عشرة سنة .. هذه اردتى ! ..

فاختنق صوت العجوز في صدرها من فرط الفرح وهوت على يد القيصر تقبلها وتغمرها بالدنوع ، ثم تمالكت نفسها ، وخرجت مسرعة ، وشقت زحمة الجماهير اونطلقت الى السجن تحمل الى سونيا البشرى !

الحب في حياة الشاعرة الكورسيكية جلوريا فيرونا

" أشتهرت الشاعرة الكورسيكية جلوريا فيرونا بقصائد رائعة تفنت فيها بحب رجل كهل يكبرها بعشرين سنة . وهذه هى قصة حبها لذلك الكهل مأخوذه عن مذكراتها

لم أكن من اولئك الفتيات اللاتى يروق لهن بدافع الكبر والغرور أن يصارحن الناس بأفكارهن وعواطفهن في كل مناسبة . كنت منطوبة على نفسي ، مولعة بالتأمل والصمت ، أخفي انفعالاتى جهدى ، وأحاول على الدوام أن اظهر بمظهر السكينة والثبات . هكذا أحببت " رودريجو " دون أن اكاشفه بحبى ، ودون أن أشعره ولو لحظة واحدة أنه قد أصبح في نظرى ملء الدنيا ..

كان رجلا في نحو الخمسين عريض الجبهة صبيح الوجه ، شامخ الرأس في عزة متحدية ، أسود العينين في زهو واثق عجيب ، يتدفق منه سيل من الرجولة المطمئنة ، يخلب اللب ، وياخذ بمجامع القلوب ..

وكان قد هبط قريتنا بعد ان غاب عنها عشر سنوات ، قضاها في بلاد الشرق الاوسط حيث اشتغل بالتجارة وجمع المال ..

ولم يكن يشعر بوجودى ، أو يدرك انى أحبه .. فكنت أستعذب

النظر إليه وهو جاهل حقيقة عواطفي ، وكنت أجد سعادة ما بعدها سعادة كلما استطعت أن أتصل به ، وأجلس إليه ، وأملأ بصرى وسمعى من فتنة كيانه القوى الظافر المرهوب ..

وكان يعاملنى كانى طفلة ، وكنت انظر إليه في عبادة وتقديس كأنه بطل من أبطال الاساطير ..

ويعلم الله انى لم أحببه لماله ، ولا للجاه العريض الذى كان يعيش فيه.. بل لقد أحببته لصدق عزيمته ، وقوة أرادته ، وعنف كفاحه ، وفيض الرجولة المنسكب عليه ..

وكان يحز في صدرى انه لا يرانى ، ولا يحفل بى ، ولا يكترث لشبابى وجمالى ، ولا يكلف نفسه أكثر من عناء ملاطفتى ، ومداعبتى ، والعطف على عطفا خالصا بريئا أشبه بعطف والد او شقيق ..

وكان يحز في صدرى انه لا يرانى ، ولا يحفل بى ، ولا أراه يجامل ودها .. فتحتدم في صدرى العواطف ، ويزخر قلبى بالآمال ، وأقول في نفسي وانا اختلج وأرتعد ، انه لابد أن يطلب يوما يدى ، ولابد أن يصبح في الغد القريب او البعيد حبيبى وزوجي ..

هذا الامل العظيم أضرم في قلبى نار الحب ، وفي ذهنى نار العبقرية ، فكنت اخلو الى نفسي وأنظم الشعر ، واستمد وحيي من جمال رودريجو ، واستهبط الهامى من قوته ورجولته ، ولاسيما من صفحة جبينه المشرق العريض الذى كان يحتل خيللى ، ويفعم ذهنى بشتى الاطياف والرؤى ..

اجل .. لم أشأ أن أتغزل كيفية الشاعرات في جمال عينى حبيبى ، أو سحر مظهره ، أو روعة مفاتنه الجسمانية

سموت بخيالى ، وأردت ان اخالف العرف الشائع ، واتخذ من جبين الرجل أى موطن جماله المعنوى مادة لغزلى ..

والحق انى كنت أتمثل في جبين رودريجو مختلف صور الخير .. فعبدت أشراق ذلك الجبين الحر الابى ، وحاولت ان أسجل التاثير العميق الذى بعثه في نفسي ، فانطويت على قلبى وفكرى ذات مساء ، وكتبت القصيدة التإلة التى اعتبرها النقاد فيما بعد فتحا جديدا في فن الغزل المعنوى السامي ، والتى أجترأ فانتحلها لنفسه بعض الخاملين من شعراء أوربا :

جبين حبيبى قطعة من الشمس استقرت على طاقة من الازهار ..

جبينه الناصع تاج نظمته الآلهة الرحيمة من لآلئ البحار ..

جبينه الابيض جوهر صيغ من طهر الزنابق وصفاء إلىاسمين ..

جبينه رحمة ومجد وجلال واشراق !

***

ان نور جبينه ليتألق ويصب أضواءه على بدنه النقى كالثريا علقت فوق هيكل ! ..

وانى لاخشع امام هذا الجبين ، كما يخشع المسافر ضل في الليل

طريقه ثم أبصر فجأة وجه الصباح ! ..

***

جبينه الساطع العريض يكمن فيه الفكر ، كما تنطلق منه أشعة الاقدام

جبينه المرمرى يتحكم في غرائزه ، ويتسامي بها ، ويجردها من معدن البشرالوضيع ، ويباعد بينها وبين ضعف الناس ..

ولقد طالما حيرني منه جبينه ، وصرفه عني ، وانتزعه من فسحة خيالي ، وألحقه على الرغم مني بالملأ الاعلى !

انه ليس رجلا ولا بطلا ولا ملكا .. ان أكثر من ذلك بكثير ..

انه شبه اله ، جن ففلفل رهط الآلهة وهبط الى العالم البشرى ، ثم اصطفاني من دون النساء طرأ ، واحبني ، ليبني معي على الارض صرح السعادة وملك السماء ! ..

***

ولبثت شهورا طويلة احب رودريجو في صمت ، وأخلع عليه في شعرى وخيالي كل الفضائل والمحاسن التى تزخر بها أحلام العذارى ، وأتوقع منه ان يستشعر حبي ، ويقدر شبابي وجمالي ، ويتقدم في النهاية ويطلب يدى ..

واستغرقني هذا الامل ، وبت من فرط تفكيرى فيه ، اعتقد اعتقادا

راسخا انه لابد ان يصبح يوما حقيقة واقعة ..

وهكذا عشت في دنيا الوهم والخيال حتى سقط القناع عن عينى فجاة فرأيت وسمعت ما أذهلنى وروعنى

كنت ذات صباح في حجرتى منكبة على مطالعة قصة شائقة ، واذا بى اسمع جلبة وضوضاء في مخدع أبى . فأدركت ان نزاعا شديدا قد رقع بينه وبين أمى ، فاندفعت مذعورة وهممت بان أدخل المخدع .. ولكنى ماكدت أخطر بضع خطوات حتى طرقت مسمعى كلمات وعبارات غريبة جمدت لها ، ولم أستطع الا أن أصغى إلىها وأنا انتفض حنقا وسخطا وارتعد من قمة راسي الى اخمص قدمي ..

قال أبى وهو يقهقه قهقهة وحشية موجها كلامه الى أمي :

– وهكذا استفاق الماضي في نفسك عشر سنوات ! يا للسخرية المرة ! .. لقد تزوجتنى ياتيريزا لا لأنك احببتنى ، بل لأنك كنت قد يئست من الاقتران برودريجو ! .. أجل .. كنت تحبينه .. تلك هى الحقيقة!.. لم يشأ والدك أن يزوجك به لأنه كان فقيرا معدما ، فامتثلت لحكم القدر وتزوجتنى انا المزارع الثرى ! .. والآن وبعد أن ضاربت انا في البورصة وخسرت جميع أملاكي غنيا ، فعدت انت الى حبه وعاد قلبك يخفق له ! ..

فندت عن والدتى ضحكة ساخرة ، وأجابت وهى تتطرح على مقعد:

– ولكن .. من الذى ادخل ذلك الرجل هنا ؟ .. من الذى فتح له أبواب بيتنا ؟ .. ألست أنت ؟ ..

فعض والدى على شفتيه وغمغم :

– كنت أجهل ما كان بينكما ، وكنت في أشد الحاجه الى ذلك الرجل .. اعتقدت انه شريف ، فأوليته تقى ، وفتحت له بيتى ، واتخذت منه صديقا حميما لى ، واستدنت منه ذلك المبلغ الجسيم الذى حاولت عبثا أن انقذ به بعض أملاكي .. أجل ، كنت أجهل كل شئ .. كنت غافلا عن كل شئ .. أما إلىوم فقد تنبهت وصحوت ! .. انت تحبين ذلك الرجل ، وهو يشعر أبلغ شعور وأوفره بالضائقة المإلىة التى أتخبط أنا فيها ، فيسرف في التودد إلىك أمامى ، كأنه يأبى الا أن يخيرنى بين المال والتشرف ، ويجبرنى على أن أفي له دينه من خالص عرضى وحر دمي !..

فصاحت والدتى متحدية :

– أصرفه أذن ! .. رد إلىه ماله ولينته كل شئ ! ..

فدنا منها والدى ، وقال في هدوء أشاع في نفسها الرعب :

– سأطرده ! .. إلىوم ! .. بل الساعه ! .. وسأفي له الدين كاملا !

فصرخت المرأة :

– ومن أين لك المال ؟ ..

فطوى ذراعيه على صدره ثم انحنى عليها ، وهمس في أذنها وهو يختلج :

– منك أنت ! ..

فنهضت والدتى ملتاعة ، وواجهت زوجها في تحفز ، وقالت في صوت غائر أجش :

– أعثرت على مجوهراتى ؟ ..

فصاح وهو يحدق إلىها تحديقا ثابتا :

– سأجدها ! .. سأقلب البيت رأسا على عقب حتى أجدها ! ..

فأرسلت والدتى ضحكة هادرة وقالت :

– عبثا تحاول ! ..

فانقض عليها ، وأمسك بعنقها ، وقال وهو يكاد يخنقها :

– اين أخفيت المجوهرات ؟ .. لمن أعطيتها ؟ .. لابد أن انقذك بالرغم منك وأنقذ عرضك وعرضي ، وأحمي مستقبل ابنتى ، وأصون بيتى من لوثة العار ! .. أين المجوهرات ؟.. تكلمى ! ..

فشعرت أنا كأن هوة سحيقة قد احتفرت تحت قدمي ، وكان آمالى وأحلامى قد انهارت فجأة واستحالت إلى انقاض تساقطت على دفعة

واحده ، وغيبتنى في هوة صحيقة لا قرار لها ..

وفي مثل لمح الطرف أحسست انى قد انتزعت رودريجو من قلبى ، وسلخته عن نفسي ، وأصبحت أبغضه بغضا مروعا .. لا لأنه اجترأ فقط على التطلع الى والدتى ، بل لانه خان أيضا والدى وانتهك حرمة صداقته، وغافله وحاول أن يسطو على عرضه ..

وكنت شديدة الاستمساك بتقإلىد أسرتنا ، حريصة كل الحرص على سمعتها .. فهالنى أن يستباح شرفها / كما هالنى أن يظل رودريجو متفضلا عليها ، فأشرقت بصيرتى ، ولمعت عيناى واندفعت كمعتوة ، واقتحمت مخدع والدى ، واتجهت صوب أبى ، وصحت به :

– انى اذكر .. أذكر تماما .. أذكر انى كنت منذ أسبوع في منزل خالى ، فلمحت امي تتسلل الى مكتب شقيقها ، وتسلمه حقيبة مجوهراتها، وترجوه وتلتمس إله أن يودعها خزانته الحديدية وأن يحرص جهده عليها!.. هذا ما رأيته بعينى .. وانى لأقسم بالعذراء الطاهرة انى صادقة !..

فلم يكد والدى يعى ما قلت ، حتى أبرقت عيناه ، وتخلى عن امراته لفوره ، وانطلق صوب الباب وهو يصيح :

– سأقص على أخيك القصة كلها ! .. انه أشد غيرة منى على شرف أسرتى ! .. سيعطينى المجوهرات ! .. وان رفض ، فلابد أن أفي مع ذلك دينى ، ولابد أن ابيع هذا المنزل الذى هو ىخر ما بقى لى ! ..

وخرج لا يلوى على شئ .. فجن جنون والدتى ، وارتمت على صارخة :

– تريدين أن تهدمى حياتى ؟ .. ولكنك لن تتفوقى على ! .. اميطي اللثام عن وجهك ! .. صارحي في جرأة بحقيقتك ! .. اجل .. انت عاشقة .. أنت غيور ! .. أنت تحبين رودريجو ! .. إلس كذلك ؟ .. أنا لست عمياء .. ولكنه لايراك .. لا يحفل بك .. لا يشعر بوجودك .. انه يحبنى انا .. انا .. اتفهمين ؟

فصحت بها والدم يغلى في عروقى :

– لقد مات رودريجو بالنسبة الى منذ الساعة ، وحاشاى أن أكون مخبولة فأغار على ميت .. انما انا ادافع عن كائن حى هو شرفك الذى هو شرفي وشرف أسرتى ! .. لن أدعك تجلبين الى بيتنا العار ..

فصوبت الى أمى بصرها المنقد ، وقالت في ثبات وعزم :

– وانا لن أمكث في هذا البيت لحظة .. لم يعد في مقدورى أن احتمل ذل الفاقة والحرمان في صيحة والدك ! .. لقد اقترنت به لا لانى أحببته ، بل لانه كان ثريا .. فلماذا ضارب بثروته ، وغامر بامواله ، وأصبح بمحض أرادته فقيرا معدما ؟ .. الذنب ذنبه هو .. أما أنا فلست مسئولة .. كلا .. ولست مكلفة بتحمل نتائج طيشه ونزفه وتهوره ! .. أنا احب رودريجو ، وساتزوجه ! .. أتفهمين ؟ .. ومهما حاولت أنت أو والدك ، فلن أتحول ابدا عن عزمى ! ..

وعادت نحو النافذة ، وفتحتها على مصراعيها وصاحت بأعلى صوتها :

– رودريجو! .. رودريجو! ..

فاطل الرجل من شرفة بيته الذى كان يجاور بيتنا . فلوحت له امى بذراعيها فأسرع وهبط الدرج مذعورا ، ودخل علينا وهو حائر شارد مذهول ..

وما أن راته امى حتى جذبته من يده وتعلقت به ، وهتفت وهى في شبه حمي :

– لم يعد لى سواك ! .. انت تعلم أنى أحبك ! .. فخذنى .. خذنى من هنا واذا شئت أن نرحل الآن ، فانا طوع امرك ورهن أشارتك ! ..

ومضت تجمع بعض ثيابها في حقيبة ، وتختطف قبعها ومعطفها ، وتضم الرجل الى صدرها ، وهى تردد في لهفة وقحة كأنها طفلة أصيبت بمس من خيال :

– هيا .. هيا بنا .. انقذنى اذا كنت حقا تحبنى !

ودفعته الى الباب وهو مسلوب الحول غائب الذهن .. فطاش صوابى ، وفقدت حكمي على نفسي ، كبر على أن يحطم هذا الرجل صرح حبى ، وأن يلوث في الوقت نفسه سمعة والدتى وشرف أسرتى .. فحزمت أمرى ، واستجمعت قواى ، وأسرعت الى النافذة المفتوحة واعتليتها

ووقفت على حافتها وصرخت في وجه أمي :

– لن تغادرى البيت في صحبة عشيقك .. لو خطوت خطوة واحدة فسألقى بنفسي من هنا !

واستويت على حافة النافذة ، متقدة العينين ، مضطرمة الخدين ، مبسوطة الذراعين ، وشعرى الاسود الغزير يتهدل في كتفي ملقيا ظله الحالك على بصرى الزائغ المجنون

وأحسست أن والدتى توشك أن تبتسك ، وتوشك ان تسخر ، وتوشك أن تتحرك وتتحدى .. فصرخت أنا هادرة ، وهممت باة ألقى بنفسي من النافذة . ولكن رودريجو أسرع الى ، وارتمي بجمعه على ، وطوقنى بذراعيه القويتين ، ثم جذبنى الى وسط الغرفة ، وظل ينظر الى طويلا ، ويتأمل وجهى وشعرى ، وهو ساهم واجم ، يلتقط انفاسه جهده ، ويحاول أن يتكلم فلا يستطيع ..

ولفحتنى أنفاسه الحارة ، فأخذ الاشمئزاز بمخنقى .. فدفعته عنى في عنف وصرخت :

– اخرج ! .. وحذار أن تعود ! .. اخرج من هنا . انج بنفسك والا قتلك والدى انت وهى !

فشخص الى رودريجو لحظة ، ثم قال في هدوء وعيناه السوداوان لا تفارقان عينى :

– بل سأبقى ! ..

فتطلعت إليه مبهوتة ، فانصرف عنى وتحول نحو امي ثم جذبها من ذراعها ، وقادها وفق تقإلدنا نحو أيقونة للعذراء مريم كانت مثبتة في الحائط ومعلقة فوق مصباح زيتى صغير ، وهتف :

– تيريزا .. هل في وسعك ان تقسمي أمام العذراء انك كنت عشيقتى ؟ ..

فتراجعت والدتى مستهولة وقالت :

– لا أستطيع أن أقسم بالعذراء على شئ لم يكن .. وما أنا بحمقاء أو مجنونة حتى أمنحك نفسي قبل زواجنا ..

فاثنى رودريجو الى وقال :

– أواثقة انت الآن من أنه لم يكن بينى وبين أمك أية علاقة شائنة؟

فملكنى الذهول ، ولم أصدق سمعى . كنت أعلم علم إلىقين أن والدتى تقدس العذراء مريم ، ولا يمكن أن تقسم بها على شئ لم يحدث ، ومع ذلك فقد خالجنى الشك ، فصحت برودريجو :

– انها كاذبة ..

فلم يتردد ، واندفع نحو والدتى ، وقال لها في لهجة متضرعة مبتهلة ، وضاعت في نفسي شعور الدهش والاستغراب :

– التمس منك يا تيريزا ، أتوسل إلك أن تقسمي بالعذراء أنك لست عشيقتى ..

فمست امى بيدها الايقونة المقدسة ، وقالت في صراحة ملؤها الصدق والتحدى :

– أقسم بالعذراء انى لست عشيقة رودريجو ، كما أقسم انى أحبه وانى أتمنى من صميم فؤادى أن أصبح زوجته !

فابتسم رودريجو ابتسامة غريبة ، وقال وهو لا يفتأ يحدق الى :

– أما يزال في نفسك أى شك ؟..

وتوسط الحجرة ، ووقف تجاهى ، ورفع رأسه الشامخ المعتز ، وأردف في صوت ثابت جهير :

– الواقع انى لم أرتكب ذنبا يمكن أن يحاسبنى عليه ضميرى .. الواقع ان أمك يا جلوريا لم تكن أبدا عشيقتى ! .. لقد احترمتها ، وأجللتها ، وحرصت على مكانتها ، ولم أحمل لها في قلبى أكثر من عاطفة الصداقة ، الصداقة البريئة النزيهة الخالصة ..

فتقهقرت أمي مبهوتة ، وفغرت فاها كبلهاء ، ثم صرخت في الرجل وقد جحظت عيناها ، وغشي وجهها الجميل حنق وحشي مروع :

– ماذا تقول ؟!

فانحنى رودريجو أمامها وتمتم :

– معذرة يا سيدتى .. لقد خدعك الوهم وزين لك ان الصداقة هى الحب .. أما أنا فلم أخدعك أبدا .. لم أقيد نفسي من نحوك بأى وعد .. لم ألوح لك لا بالحب ولا بالزواج .. أنت التى أحببتنى من تلقاء نفسك .. أحببتنى .. نعم .. ولكن لا لشخصى ، بل لجاهى ومالى وثروتى ! .. هذه هى الحقيقة ! ..

فشحب وجه امى شحوب الموتى .. ثم عصف بها السخط والكبر وإلىأس ، فارتمت على رودريجو ، وانشبت أظافرها في صدره ، ودفعته الى الباب دفعا وهى تصيح :

– أنا التى آمرك الآن بالخروج ! .. انصرف ! ..انصرف حالا ! ..

فلم يحفل بها ، وجلس على مقعد ، وطوى سافا فوق أخرى ، وقال في هدوئه الراسخ ، والابتسامة الساخرة الباردة لا تفارق شفتيه :

– سأنصرف ! .. لكن بعد ان أرى زوجك ، واسترد منه المبلغ الكبير الذى اقترضه منى ! .. ومتى حصلت على حقى فلن أبقى هنا ! .. لن أبقى في هذه القرية ابدا ! .. سأرحل صباح الغد ! ساودعكم جميعا ، واعود من حيث أتيت .. أعود إلى بلاد المشرق ، بلاد الشمس والحرية ! ..

فارتعشت انا وتفطر قلبى .. وفي مثل خطف البرق تبدلت نظرتى الى

رودريجو ، وعاد يمثل في خيالى مثلى القديم الاعلى ، فمشيت إليه ، ووضعت يدى على كتفه ، وقلت له والحسرة تكاد تمزقنى :

– أنا واثقة في شرفك يا رودريجو ، متاكدة من انك قد احترمت والدتى ، وانك لابد ان تغادر القرية كما قلت .. فتقبل عميق شكرى واعلك أنك لن ترحل قبل ان تسترد المبلغ الذى أقترضتنا أياه ! ..

فرمتنى بنظرة طويلة حزينة ثم أطرق ..

وفجاة فتح الباب ، ودخل منه أبى ، منصوب القامة ، ومرفوع الرأس .. فلم أمهله ، واندفعت نحوه ، وطوقته بذراعى ، وصحت به :

– لقد جاء السنيور رودريجو ليودعنا .. سيرحل صباح الغد .. لقد أقسم بالعذراء الطاهرة انه سيرحل ، سيعود الى بلاد المشرق ، فهل جئت بالمجوهرات؟ ..

فبهت والدى لحظة ثم دنا من صديقه ، وألقى عليه نظرة شزراء ، ثم تحول صوب أمى وقال وهو يهدر :

– لم يشأ اخوك أن يسلمنى المجوهرات ، فرهنت البيت ! .. أتسمعين ؟ .. رهنته ! .. وهذا هو المال .

هذا هو الدين ! ..

والتفت الى رودريجو وأردف :

– لقد كنت فلاحا مثلنا حريصا كل الحرص على تقإلىدنا ، ولقد عرفتك منذ نعومة أظفارك انسانا مؤمنا ، فأنا لا أعتقد ان المرأة قد علمتك النفاق ، فاقسم ، أقسم أمامى بالعذراء الطاهرة أنك لم تكن عشيق امرأتى ، فإذاا أقسمت رددت إلىك مالك ، واذا امتنعت أيقنت من ذنبك ولم أتردد في دعوتك الى القتال على الفور ! ..

فمس رودريجو الايقونة في هدوء واقسم ، فلمعت عينا والدى ، وتحسس جيبه ، وأخرج النقود .. وعندئذ ، وفي تلك الساعة التى لن انساها ما حييت ، تراجع رودريجو ، ورفع رأسه الشامخ ، وقال بصوته الثابت الجهير :

– لن استرد النقود قبل أن اعرف رأى ابنتك ! ..

ودنا منى فجاة وانا ساهمة شاردة ، وأمسك بذراعى ، وواجهنى بعينيه السوداوين الساحرتين ، وصاح :

– أتقبلينى زوجا لك يا جلوريا ؟..

فعقل الدهش لسانى واختبلت .. واستطرد يقول في صوت متهدج وهو يتأملنى :

– ما أحببت غيرك في حياتى يا جلوريا ! .. ما دخلت هذا البيت الا من أجلك وحدك يا جلوريا ! . ما عقدت صلة الصداقة بأبيك وأمك الا لاراك وأكون بجوارك يا جلوريا ! .. ولكنى رجل كهل .. رجل يكبرك

بثلاثين سنة ! .. لهذا دفنت همي في صدرى ولم اتكلم ! خفت إن أنا تكلمت أن أقابل منك بالصد والاحتقار ، فآثرت ان أظل صامتا وأتعذب ! .. فتكلمى أنت الآن .. أنت يا مثال الشرف والنبل ، تكلمى وافصلى في مصير حياتى . أنا لا أطلب من والدك مالا ، بل أطلبك أنت فقط ! سيكون دينى مهرا لك يا حبيبتى ، فاذا قبلت أن تصبحي زوجتى ، حملتك في الغد معى الى بلاد الشمس الساطعة وعشت بجوارك أسعد واهنأ وأكمل حياة ! ..

فأرسلت من أعماق قلبى صرخة مدوية ، وارتميت بين ذراعى رودريجو بينما كانت امي تنتفض وتختلج وتجهش بالبكاء..

***

ولما احتوانا القطار وخرج بنا من القرية في طريقنا الى بلاد الشمس حيث تنتظرنا السعادة ، نظرت الى زوجي الكهل الجميل وذكرت حبه العظيم لى . فجاشت عواطفي ، وانثالت الخواطر من ذهنى ، ولم أستطع إلا أن ألوذ بقلمي وكراستى واكتب هذه القصيدة :

***

من ذا الذى قال أن الحب يزهر في سن الشباب؟ ..

الشباب هو الحركة الدائمة ، هو الفضول الدائم ، هو الرح والنسيان والكبر ، هو العبث والجنون والفوضي !

الشباب يكره الوفاء لانه لا يعرف الطمأنينة ولا يفهم معنى الثبات ..

فمن ذا الذى قال أن الحب يزهر في سن الشباب ؟..

***

الحب ملك هادئ مهيض الجناح ..

الحب طائر يؤثر حرارة العش على نضرة السماء ..

الحب راحة وسكينة ودعة وصفاء ..

الحب إيمان بما في شخص واحد من قوى الجمال والجلال والبقاء ..

فكيف يؤمن الشاب بامرأة واحدة ويكتفي بها ؟..

وكيف تؤمن الشابة برجل واحد وتكتفي به دون أن تخاف من غدره وتتعذب ؟ ..

لا .. لا يحسن الحب الا من ودع الشباب ، ولا يستطيع أن يكون عبقرى الحب الا من ودع الدنيا .. اذ كيف يمكن أن تحب الحب وانت ما تزال تحب الدنيا ؟!

تلك هى عقيدتى .. ولذلك اخترت حبيبى وزوجي كهلا في الخمسين ، وخط الشيب رأسه وعاقت نفسه ملذات الحياة ! ..

* * * *

هو كهل ولكن فيه جمال الحكمة وجمال الخبرة وجمال النضوج .. هو كهل ولكن فيه جمال الراحة وجمال السكينة وجمال الاستقرار ..

هو كهل ولكن حبه المطلق الوفي لا يمكن ان يعرفه الشباب ..

***

لم يعد يطلب في الحياة غير حبى ..

لم يعد ينشد في الحياة غير سعادتى ..

لم يعد يبصر في الحياة أية امرأة سواى ..

فأنا له وهو لى ، لأن العالم لم يعد يشغلنا عن انفسنا ، ولأن زوجي ودع العالم في سبيلى ، وعلمنى كيف أودع العالم في سبيله انا أيضا ..

هذه هى النشوة .. هذا هو الامتلاء .. هذا هو الفرح الذى لن يعرفه الشباب ..

فمن ذا الذى جن فقال أن الحب يزهر في سن الشباب؟ ..

الحب مرتعه الكهولة .. والكهولة وإن لم تكن هى ربع الحياة ، الا أنها ربيع القلب والعقل والروح ! ..

الحب في حياة الراقصة الفارسية أراكسا

" وقعت حوادث هذه القصة في بلاد فارس عام ٢٣٠ بعد الميلاد.. وكانت الامبراطورية الفارسية قد خضعت قرونا طويلة لحكم " البارتبين " وهم قبائل أجنبية متوحشة انحدرت من جنوب شرق أوربا ومن شمالها الغربي، فلما تعاقبت مظالمها ، ثار في وجهها أرتاكزوكسيس ابن ساسان الوطني الفارسي فحاربها ودوخها ، واستطاع أن يؤسس الاسرة الساسانية الايرانية الخالصة . على أن طائفة كبيرة من البارتيين كانت قد ارتدت الى صحراء " كوهستان " وشرعت تعد العدة لغزو البلاد مرة أخرى .. فبعث إليها أرتاكزركسيس بجيش جرار أسند قيادته الى البطل " مازندران " فتمكن البطل من تلك الطائفة وافناها فمنحه أرتاكزركسيس حق الامرة على جزء من ولاية خرسان وجعل منه الرجل الثاني في الدولة بعد الامبراطور

كانت " أراكسا " جالسة في الكوخ الكبير تحدق من بابه المفتوح الى السماء المكفهرة ، وتتأمل ضبابها الكثيف وتفكر ..

وكانت أمها العجوز تغط في نومها ، ووالدها الشيخ يهيئ شبكته الكبيرة استعدادا للصيد ، وأختها العمياء تتحسس أعواد القش وتجتهد في أن تجد لها وتصنع منها شبه سلال جميلة تبيعها غدا في السوق .. وكان

الجو حارا خانقا ، والليلة ثقيلة زافرة ، والنسيم لا يهب الا في فترات متباعدة ، كأن الضباب يابى الا أن يحبسه ثم يطلقه على الناس بمقدار ..

وأثارت شدة الحر أعصاب الشيخ ، فرمق ابنته أراكسا بنظرة حانقة، وصاح بها :

– ولست أدرى فيم تفكرين ! ؟ .. تحركى ! .. انهضى ! .. ساعدينى على الاقل .. هيا ..

ورفع كفه ولطمها .. فامتقع وجه الفتاة ، وركلت الشبكة الكبيرة بقدمها وصرخت :

– قلت لكم دعونى وشأنى ! .. ماذا تريدون منى ! لقد اشتغلت طوال يومي كحيوان ! .. غنيت ثلاث ساعات ، ورقصت خمس ساعات ، وقطعت القرية كلها مشيا على قدمي ، وجئتكم بأكبر كمية ممكنة من المال! أفلا أستطيع بعد هذا الجهد الشاق أن أخلو إلى نفسي وأن أسترسل ما شئت في تأملاتى وأحلامى ؟! ..

وصمتت لحظة وهى تلهث ، ثم تحولت نحو ولدها ، واستطردت شامخة متحدية : لو رفعت يدك على مرة أخرى فلن أمكث هنا ! .. أتسمع ! .. لن أظل أسيرة في هذا الكوخ واحدة ! ..

فهز الشيخ كتفيه ، وقال وهو يبصق على الارض :

– أظنك أصبحت عاشقة ؟ .. إلس كذلك ؟ .. والا فما معنى هذا

الاطراق الطويل ، وفيم كل هذه التأملات الفارغة ؟ .. لعلك نسيت أنك قد جاوزت سن الغرام ، وأنك فتاة عانس ، وأنك إلىوم في الحادية والثلاثين من عمرك ؟.. أولى بك أن تفكرى في العمل لا في الحب ، وفي الواقع لا في الخيال ! ..

فأومضت عينا الفتاة وهتفت :

– انى راحلة ! ..

واندفعت نحو الباب ، فأمسك والدها بذراعها ، وهم بأن يرفع كفه مرة ثانية ويلطمها .. ولكن أختها العمياء أسرعت إلىها ، وارتمت على الشيخ وأقصته عنها ، فارتد الرجل متسخطا ، وحمل شبكته الكبيرة ، وخرج وهو يبصق على الارض ويدمدم ..

وما كاد يختفي حتى انهمرت الدموع من عينى أراكسا فأخذتها أختها العمياء بين ذراعيها ، وطفقت تقبلها ، وتغمغم في أذنها :

– من حقك يا أختى أن تحلمى ! .. الاحلام جميلة ، والآمال لابد منها ، وكل امرأة يجب أن تفكر في رجل ! .. ألا افكر أنا في حبيبى مع أنى عمياء؟! انت على الاقل ترين النور ، والنور يغرى بالامل ، ويوحي بالجمال ، ويدفع الى الحب .. انا .. انا وحدي التى أفهمك هنا يا أراكسا، فكفكفي دموعك يا أختى وقبلينى ! ..

فتأثرت الفتاة العانس ، وانحنت على شقيقتها ، طبعت على كل من

كينيها المتقرحتين الهامدتين قبلة ..

وفي تلك اللحظة ارتج مصراع الباب ، واندفقت الى الغرفة هبة نسيم .. فاستشعرت العمياء قدوم طارق ، سرعان ما عرفته وصاحت :

– هو ذا أتريك ! .. هو ذا شاعرك العظيم ! .. البثى في رفقته ما شئت ! .. أحلمى في صحبته ما أستطعت ! لن أعكر صفاء كما بوحودي ! .. أنا ذاهبة لأنام ! ..

وانسلت العمياء الى الغرفة المجاورة ، وتركت أراكسا واقفة بجوار الباب ، تصافح أتريك ، وتنظر إلىه نظرة ملهوفة ، وقد أشرق وجهها ، ولمعت عيناها ، واحتواها فرح طارئ عميق ..

* * * *

وتأبطت ذراع الشاعر ، ودفعت به الى خارج الكوخ في الحقل المظلم الفسيح ، وقالت أيضا إلى هناك .. إلى السهل الذى تعرفه .. إلى السهل الاجرد الواسع .. الى بيت الساحر العراف ! .. ولقد قال لى الساحر أشياء جديدة .. أشياء عظيمة ورائعة ! .. فضم الشاعر الكهل قيثارته الى صدره ، وتطلع الى الفتاة وصاح :

– وماذا قال أيضا ؟ .. خبريني .. أسرعى ! .. فحدقت أراكسا الى الافق المكفهر وأجابت :

– أوقد الساحر ناره ، ونظر في النار طويلا ، ثم ألقى فيها بمنديلى

الاحمر ، ثم قرأ بعض التعاويذ ، ولما اضطرمت النار والتهمت المنديل ، قال لى هذا المرة أيضا وفي لهجة قاطعة ، أن مستقبلى زاهر ومجيد ، وأن الاله " أورمزد " القوى يحبنى ويرعانى ، وأن طائرا عظيما من طيور السماء سيحملنى فجأة الى عالم ذهبى عجيب ! ..

فصاح اتريك :

– ولكن متى ! .. متى يحدث هذا ؟..

فقالت أراكسا وهى ترتعش :

– في هذه السنة نفسها ، وقبل أن أبلغ الثانية والثلاثين ! ..

وسكتت لحظة ثم صرخت :

– أواه .. لقد ضاع شبابى في انتظار تحقيق هذا الحلم ! .. أعظم وأشهر ساحر في بلاد فارس تنبأ لى بالعظمة والمجد ! .. أتذكر .. أتذكر يوم خطبنى ذلك المزارع الجميل ، وكنت اذ ذاك في العشرين من عمرى ! .. ملأت قلبى السعادة وأوشكت أن أتزوجه .. ولكنى قبل أن أعطي كلمتى ، ذهبت الى السهل الاجرد والتمست الى الساحر العظيم أن يقرأ طالعى .. فلم يكد ينظر في خطوط كفي حتى انتهرنى ، وأمرنى بأة أعدل عن ذلك الزواج ، وانتظر .. أجل .. أقسم لى أنى لو انتظرت الى ما بعد سن الثلاثين ، فسيعشقنى ويعرض على الزواج مخلوق هو أعلى من أنسان وأقوى من ملك ! .. ومنذ ذلك العهد وانا صابرة ، أرفض جميع الخطاب،

وأرى شبابي يذبل ، ولا أفتأ مع ذلك أثق في الوحي ، واتطلع الى المجهول! .. فهل تصدق إلوم نبوءة الساحر الجديدة ، وهل دقت حقا ساعدتي ، أم يجب أن أصبر أيضا ، وانتظر أيضا ، وأتلهف حتى اموت ؟!

فربت أتريك على كتفها ، وقال وهو يداعب بانامله خصلات شعرها الاسود المموج الجميل :

– الطموح في دمك يا أراكسا ، ومهما ثارت حسراتك يا بنيتي ، فسيظل قلبك مشرئب الامل نحو المجد !.. على انك تعرفين منزعى وفلسفتى .. أنا احتقر متاع الدنيا ، وأعتقد أن كل نعيم يصيبه الانسان لابد أن يدفع ثمنه من خالص دمه ! .. فإذا أردت نصيحتى فهأنذا أكررها عليك : اقنعى بحالك يا أراكسا واهدئي .. أن صوتك خلاب ، ورقصك فتان ، وجماهير الشعب من أغنياء وفقراء تحبك وتقدرك.. فابقى معهم يا أراكسا ، وحاولى أن تجدي سعادتك في أسعادهم .. واذا مزقت فؤادك الحسرة على شبابك ، فتزوجي ، فأنت جميلة ، بل أنت إلوم في روعة نضوجك أبهى وانضر ألف مرة مما كنت بالامس ! .. تزوجى .. تزوجي ذلك المزارع فهو ما يزال يحبك ، وما زال ينتظرك حتى إلوم ! ..

– ولكنى أشعر انى مرصودة لشئ أعظم منى ! .. أعظم أيها الشاعر الفليسوف وأقوى من أرادتى ! .. فكف عن حديثك الموئش وشجعنى ! .. أجلس قرب هذه الشجرة وخاطبنى .. خاطبنى بقيثارتك لا بعقلك ، فلنحن القيثارة الرقيق يا شاعرى أعمق وأبلغ من همهمة العقل القاسي ! .. أنشد .. أنشد لى أغنية الفجر البنفسجي !

فضرب الشاعر على أوتار قيثارته وحنى رأسه وأنشد :

" الفجر يتفتح كالبنفسجة ..

والبنفسجة هى قلبى ..

ولكى أرى الوادى بالقرب منى ..

فمن ذا الذى ينبه الفجر الى خوفي وينقذ البنفسجية من هوة الوادى؟! "

وصمت الشاعر ، فانفجر الدمع من عينى أراكسا ، وأبت ألا تغنى وهى تبكي ..

وراحت تردد الانشودة ، في صوت حزين ، ممزق المخارج ، متحشرج المقاطع ، ساحر النبرات .. فافتتن أتريك وترك أنامله الماهرة ترف على القيثارة فامتلأ الجو بالالحان ، وامتلأ الحقل بالاطياف .. وهب نسيم رطب ندى عليل ، حمل صوت أراكسا إلى المجهول كما تحمل الصلاة صوت المؤمن الى أعتاب الله ! ..

***

وانقضي الليل ، وطلع الفجر بغتة .. فأفاقت أراكسا من حلمها ، وصاحت :

– الى العمل يا أتريك ! .. لا يجب أن نضيع الوقت ! أسرع بنا قبل

أن يفد والدى ! ..

ونهض كلاهما ، واتجها صوب الكوخ ، فانسلت أراكسا الى غرفة أبيها فاطمأنت اذ الفتها هادئة خاوية .. فمضت الى مخدعها ، وأرتدت ثوب الرقص ، ثم حملت دفها ، وتمنطقت بمنديل أحمر كبير وتأهبت للسعي وراء رزقها ، في صحبة الشاعر الكهل الذى كان يترنح من فرط السهر

وقبل أن تخرج ، انحنت على اختها العمياء المستغرقة في النوم وقبلتها.. ثم قبلت والدتها العجوز ، وتأبطت ذراع الشاعر وخرجت ..

واجتاز الصديقان الحقول الفسيحة وتركا القرية الساكنة ، وضربا في انحاء المدينة التى كانت قد بدأت تتحرك وتختلج وتستفيق ..

وشيئا فشيئا سطعت أشعة الشمس ، وفتحت الحوانيت أبوابها وغصت الشوارع بالناس ، وبدت " خرسان " في يقظة النهار أشبه بعروس مجلوة فاتنة

وكان من عادة أراكسا أن ترقص في الميدان الكبير حيث يجتمع النجار ، والسماسرة ، والجنود ، وأبناء الذوات ، والمهرجون ، وأرهاط الباعة ، وضاربوا الرمل ، وكانت تحب ذلك الميدان لا للحياة الزاخرة فيه فحسب ، بل لاناقة أبناء الذوات من رواده ، وحبهم الجمال ، وتقديرهم الفنون .. وكان كل واحد منهم يعرفها ، ويعجب بها ، يسخو عليها ، ويجهر بأنها – على الرغم من سنها – أجمل وأروع مغنية وراقصة شعبية في

" خراسان " ..

فلما أشرفت أراكسا على الميدان الكبير ، ورأته يلمع ويتألق تحت أشعة الشمس ، خفق فؤادها ، واحست – على دهش منها – انها تضرب وتتراجع لأول مرة ..

لم تفهم لاضطرابها سرا ، فحاولت ان تتقدم .. ولكن شيئا في نفسها ردها وأذهلها ، ثم أثار أعصابها واطلقها ، فمشيت ساهمه حائرة شاردة ، يؤخرها القلق تارة وتدفعها الجرأة تارة أخرى ..

وما كادت تتوسط الميدان ، وتقع عليها أبصار رواده ، حتى تعالى الهتاف بمقدمها ، فاسرع إلىها أبناء الذوات وحيوها ، ثم احاطوا بها ، ثم ناشدوها ، وهم ينهرون الباعة والصبيان والاطفال ، أن ترقص لهم وتغنى

وأجالت أراكسا الطرف حولها ، فابصرت الرؤوس متطلعة إلىها ، والوجوه مبتسمة لها ، والعيون تكاد تلتهمها ، فخيل إلىها أن حدثا عظيما سيقع إلىوم لا محالة فأهابت بقواها ، واستنهضت عزمها ، وارتمت في فسحة الميدان ، وشرعت تنقر على دفها وتغنى وترقص ..

وكانت تمثل في رقصها تمايل الغصن ، وهدير البحر ، واندلاع النار ، وتماوج الافعى . وكان غناؤها يصحب الرقص في دقة ، ويبرزه في روعة ، ويضاعف من جماله الفطرى ، وسحره الوحشى ، وحماسته الجنونية ..

وكانت قيثارة أتريك تبدر الانغام كحبات اللؤلؤ ، أو ترسلها كوابل

المطر ، أو تبعثها كصرخات ممزقة مدوية

وظلت أراكسا ترقص وتغنى ، وأتريك يعزف ويبتسم والناس من حولهما في غمرة النشوة الدافقة أشبه بالشخوص ، حتى خارت قوى الراقصة ، فتداعت أعضاؤها ، واختنق صوتها ، وانهارت عياء على الارض وهى تجمع النقود المتساقطة عليها وتضحك ..

هندئذ صاح الكل مهللا لها ، هاتفا بأسمها ممجدا سحرها ومهارتها وفنها

واذ ذاك ..وفي جلبة الميدان المزدحم وفي عصف الهتاف والتهليل ، وفي أصطفاق أمواج الناس الذين تشبثوا بالميدان وجعلوا يصيحون بأراكسا ويطالبونها برقصة جديدة ، برز من بين الجماهير رجل مديد القامة ، عريض المنكبين ، ملثم الوجه ، وشق زحمة المتفرجين ، ثم دنا من الراقصة ، وقبض على ذراعها ، وقال بلهجة الآمر :

– اتبعينى يا أراكسا ! ..

فبهتت الفتاة وصرخت ، فلم يحفل بصراخها ، وطوقها بذراعيه .. فتمصلت منه واستغاثت ، فأغاثتها الجماهير واندفعت صوب الرجل الملثم مهددة متوعدة ..

وفي تلك اللحظة ، وقبل أن تتمكن الجماهير من نزع اللثام عن وجه الرجل دوى في الجو صوت نفير.. ثم سمع وقع حوافر جياد ، ثم شوهدت

عن بعد ثلة من الفرسان تتقدم في اتجاه الميدان الكبير وهى تنهب الارض .. وسرعان مادب الرعب في الجماهير ، فصرخت وماجت واختلطت ثم تدافعت وتفرقت ولاذت بالفرار ..

وتلفتت أراكسا تبحث عن أتريك ، فألفته بجوارها مسلوب الحول ، طائر اللب ، فجذبته إليها في عنف وحاولت ان تفر به ، ولكن الرجل الملثم اعترضها ، وقطع عليها الطريق ، وأهاب باحد الفرسان قائلا :

– احملها على ظهر جوادك يا سيريوس ! ..

فمد الفارس ذراعه ، واختطف الفتاة ، كما تختطف الحداة فريستها ، فصرخت أراكسا وهى تقاوم :

– الى .. الى يا أتريك ! .. لا تدعنى وحدى ! ..

فرفع الشاعر قيثارته وهوى بها على وجه الفارس ، فانتزع الفارس سيفه وحاول ان يطعنه به ، ولكن الرجل الملثم لوح بيده ساخطا وهتف :

– لا تقتله .. خذه معك ! ..

فأسرع الفارس والقى على أتريك حبلا طوقه به ، ثم اعمل المهماز في خاصرة جواده ، فصهل الجواد وانطلق يجر أتريك على الارض جرا ، ويحمل أراكسا الجميلة التى ظلت تقاوم وتناضل وتصرخ ، حتى انهارت قواها ، وسقطت على صدر الفارس فاقدة الصواب ..

وأفاقت أراكسا من غشيتها .. وما كادت تفتح عينيها حتى بهتت .. أبصرت حجرة واسعة تضيئها ثربات على اعمدة عظيمة ، تنبثق في شموخ ، ثم تتفتح كأنها أعواد زنابق رائعة ..

وامتد بصرها الزائغ الى نافذة مفتوحة .. فرأت ساحة كبيرة ، تحف بها الاشجار الباسقة ، وتنتهي بربوة عإلة نصب فوقها قفص حديدى كبير فيه أسج هائل يروح ويغدو صامتا حانقا متوعدا .. فهلع قلب أراكسا ، وتلفتت حولها مذعورة .. وسرعان ما اشتد ذعرها ونهضت صارخة .. رأت امامها ، بجوارها ، عند قدميها ، شابا جاثيا على البلاط المرمرى الابيض ، جميلا جمالايخلب الالباب ، ينظر إلىها ، ويتفرق فيها ، ويبتسم لها ابتسامو كلها رقة وعذوبة وعطف وحنان .. فتراجعت مذهولة مرتعشة وغمغمت :

– أين انا ؟ .. أتريك! .. أتريك ! ..

فشخص إلىها الشاب كانما هو يشرب فتنة اضطرابها قطرة قطرة ، وقال لها في صوت ناعم رخيم :

– لا أريد بك سوءا يا أراكسا! .. انت في بيتى! .. في قصرى ! .. في حماى ! ..

فصرخت وهى ما تفتأ تحدق إلىه :

– ولكن من انت ؟ .. وأين .. أين أتريك ؟!..

فاجاب وهو يبتسم :

– انه نا ! .. سيأتى بعد قليل ! .. اهدئى .. اهدئي يا أراكسا ولا تخافي ! ..

فعيل صبر الفتاة ، ورددت صائحة :

– ولكن انت ؟ .. من تكون ، ولماذا جئت بى إلى هنا ؟ وماذا تريد منى ؟..

فنهض الشاب وبسط ذراعيه ، كأنما هو يقدم إليها كل ما حوته الحجرة من كنوز ، وهتف :

– انى أحبك يا أراكسا ! .. جميع ما أملك رهن أشارتك ! .. قلبى وحياتى طوع أمرك .. لا تخافي منى يا أراكسا ، فجل أملى أن أسعدك ! ..

فجحظت عينا الفتاة تعجبا واستغرابا ، وطوح بها الذهول والرعب.. فوثبت إلى أقصي الحجرة ، وصاحت وهى تنكمش وتتحفز وتطلق أصابعها كمخالب وحش مفترس :

– ابتعد عنى ! .. أياك .. أياك أن تلمسنى ! .. فقال وهو يرتجف :

– انى احبك! ..

فتاملته لحظة ، وراعها جماله ، وتجاوب في قلبها رنين صوته العذب.. ولكنها ارتابت به على الرغم من رقته وضعفه ، فتراجعت أيضا وصرخت :

– لا تدن منى ! .. من انت ؟ .. من تكون؟ .. تكلم .. فأجاب في

صوت خافت ساكن :

– أنا الامير مازندران ..

ففغرت فاها كبلهاء ، ثم صرخت :

– انت هو القائد المنتصر؟! ..

فحنى رأسه وقال :

– أنا هو يا أراكسا ، لا تخافي ! .. لا تظنى بى السوء واطمئنى ! .. لقد أحببتك منذ شهور طويلة .. رأيتك تغنين وترقصين فافتننت بك ، ولكن اضطرارى الى تأدية واجبى الحربى هو الذى حال بينى وبينك ! .. ولولا يقينى من عمق حبى وصفاء سريرتى ما أقدمت على اختطافك يا أراكسا ! ..

وخيل إلىها أن الدمع يترجرج في عينيه ..فأوشكت أن تتأثر وتقبل عليه .. ولكن زئير الاسد انطلق في تلك اللحظة قاصفا كالرعد .. فارتاعت وتقهقرت ، فاندفع الشاب نحوها ، وأخذها بين ذراعيه ، وقال مبتسما وهو يلاطفها ويهدئ من روعها :

– لا تخافي ! .. هذا أسد جلبته من بلاد كوهستان عقب إحدى غزواتى ، ولقد سجنته في هذا القفص ليكون مثلا حيا لقوة أعدائنا البارتيين التى استطعت أن اتغلب عليها وأخضعهى لمشيئتى .. !

فصاحت وهى تتملص منه :

– أما أنا فلن تتغلب على أبدا ولن تسجننى .. اننى أفهم تهديدك!

فقال وصوته يتهدج :

– أن حياتك وحريتك أعز على من نفسي ! .. وأنا أوثر أن تقطع يدى أربا أمام عينيك على أن تمتد الى كيانك الرائع بأى أذى ! ..

فنظرت إليه مبهوته .. فاستطرد يقول وهو تائه البصر في عينيها :

– كل انتصاراتى لا تساوى هذه اللحظة ! .. هذه اللحظة توجت مجدى ولولاها ما عرفت معنى النصر ! ..

وجثا عند قدميها ، ولكنه لم يمسسها .. فسكن وجيب قلبها وتقدمت ، تقدمت قليلا .. فالفته ساهما شاردا يتطلع إليها كالعابد ويلهث ، فاطمأنت لحظة إليه ، واستأنست بجو اضطرابه ، ثم تشجعت وابتسمت وتفرست فيه ..

تفرست في جبينه الناصع ، وخده الناضر ، وقوسي حاجبيه الدقيقين.. فلم تستطع تصديق بصرها وسمعها ، وعاد الخوف فتمكن منها، فتباعدت عنه متحفزة ، وهتفت :

– اذا كنت تريد أن تغتصبنى ، فحذار ! ..

فهز رأسه وتمتم "

– وما جدواى من حبك اذا أصبحت عدوتى ؟! ..انا أريدم مختارة لا مكرهة .. وفي سبيل رضاك يهون على بذل مجدى ودمى! ..

فانتشت أراكسا وترنحت ولم تعد تسعها الدنيا ..كيف ؟ .. أممكن هذا ؟ .. أفي يقظة هى أم في منام ؟ .. أيمكن ان يحبها هى .. هى الراقصة البائسة الوضيعة الشريدة التى جاوزت الثلاثين ، مثل هذا البطل الذى هو اعلى من انسان ، وأقوى من ملك ؟! ... أفي الامكان تصور هذا ؟.. اذن فقد تحققت نبوءة الساحر العراف ، وتألق ذلك الحظ الرائع الذى كان مرصودا لها في لوح القدر ! .. هو ذاك ! .. أن حياتها مرصودا لها لى لوح القدر ! .. هو ذاك ! .. أن حياتها ماتت ثلاثين سنة لتبعث إلبوم ! .. أن قلبها المحروم شقى وتعذب طوال سنين شبابها لينبض نبضا خارقا مدويا في هذا إلبوم ! .. ياله من يوم مشهود فتحت لها فيه جميع أبواب الدنيا ! .. الشباب أمامها ، والحب يناديها ، والقوة طوع امرها ، وكل مفاتن العز والجاه والسلطان في متناول يدها ! .. أممكن هذا ؟ .. أجل ممكن ! .. بل هو الواقع ! .. واقع مختلج حى يجب أن تقتنصه ، ويجب أن تحوزه ، ويجب ان تثأر لحرمانها الطويل بان تبسط سلطانها المطلق عليه ! .. أجل .. على قدر صبرها يجب أن تكون رغبتها ، وعلى قدر حرمانها يجب أن يكون تمتعها ، وعلى قدر عذابها يجب أن يكون فرحها بالتسلط والتجبر والاذلال ! .. ونظرت الى الامير الممدد عند قدميها ، وأبرقت عيناها السوداوان الوحشيتان ..

أبت أن ترى جماله ، أو تتأثر بكرم نفسه ، أو تقدر شهامة خلقه ،

أو تحفل بعظم مكانته ..

احتواها زهو غامض جرفها وانهضها . فوثبت من مكانها ، واندفعت الى أقصي الحجرة ، ووقفت في ظل عمود من الاعمدة الشاهقة ، وقالت وهى مرفوعة الرأس ، منصوبة القامة ، وشعرها المموج يتهدل على كتفيها، ولمعة العزم والتحدى تومض في عينيها الوحشيتين المتقدتين :

– لن أكون أبدا لرجل الا متى أصبح هذا الرجل جديرا بى وبالحب الذى أنشده ! ..

فقال الامير مستكبرا :

– ألا يكفيك مجدى وما سأغدقه عليك من نعيم ؟! فأجابت في احتقار وهى شامخة :

– أى نعيم ؟ .. أن أكون أميرة جواريك وسيدة أمائك وعبيدك .. كلا ! .. أبدا ! ..

فصرخ :

– اذن ماذا تطلبين ؟ ..

فاستضحكت ودارت حول نفسها كأنها ترقص ، ثم تحولت الى النافذة ورمقت الاسد بنظرة ثم أقبلت على الشاب فجأة .. فهم بأه يعانقها ، فراغت منه ولاذت بالعمود الشاهق ، ووقفت في حمايته الوطيدة

، وقالت في صوت ثابت جهير :

– أن الرجل الذى يمكن أن يكون خليقا بى ، ويمكن أن أكون يوما له ، يجب أن تتوافر فيه ثلاث فضائل يتمثل فيها الحب الكامل والهوى الخالص العظيم ! .. فهل أنت على ثقة من نفسك ومن توافر هذه الفضائل فيك؟..

فبهت الشاب لحظة ، ثم ابتسم وقال:

– وما هى هذا الفضائل يا أراكسا؟..

فأجابت في بطء وهدوء :

– هى الوفاء ، والتضحية ، والشجاعة ! ..

فهتف :

– انها لمادة حياتى ، ولولاها ما أصبحت قائدا وما انتصرت ! ..

فضحكت نصف ضحكة ساخرة ، وقالت :

– اذن يجب ن تحقق هذه الفضائل في ميدان الحب كما حققتها في ميدان القتال ! ..

فنظر إلىها مستفسرا وتمتم :

– انا لا أفهمك ..

فصاحت وقد حملتها موجة جارفة من الزهو والخيلاء :

– اذا كنت حقا تحبنى ، فاطرد الآن جواريك كلهن من أجلى .. ثم.. ثم طلق امرأتك وتزوجنى ، وكن لى الحياة بأسرها وحدى .. فالحب عندى لا يعرف الانانية أيها الامير ولا يقبل الشرك ! .. هذا هو الوفاء ، وهو الفضيلة الاولى التى أنشدها ، فهل أنت قادر عليها ؟.. فكر مليها لانك لو عدت ، فالشرف يقتضيك ألا تخلف الوعد ! ..

فحملق القائد في الفتاة لحظة ، وقام في نفسه أن يثب بها ، وأن يقبض على عنقها ويخنقها .. ولكنها كانت ساحرة ، وكانت في مناعتها وكبرها شبه الهة ، فعض على شفتيه من فرط تلهفه عليها ، ثم عاوده الشعور بالاستنكار والسخط .. فهم بأن يدعو رئيس حرسه ويأمره بقتلها .. ولكنه تصورها ميتة فذعر ، وتصور حياته من بعدها فاختبل .. ثم تصور السعادة التى يمكن ان تغدقها عليه لو اطاعها ، فترنح وتخبط وأرسل أنه مخنوقة وصرخ :

– لك ذلك يا أراكسا وأقسم لك ! ..

فقطبت حاجبيها ، ولم تتحرك .. جاهدت الفرح الجنونى الذى غمرها ولم تبتسم .. وأردفت بنفس الصوت البطئ العميق :

– اذا كنت حقا تحبنى ، فيجب .. يجب ان تختار .. يجب أن تختار بين ولدك الوحيد وبينى ! .. انا مازلت شابة وسأصبح زوجتك ، وقد اعقب مولودا ذكرا ، فيجب أن تحرم ابن زوجتم الاولى من حقه في ولاية

الامارة من بعدك ، وأن تعلن في الشعب أن هذا الحق الوراثى يصبح لو شاءت الاقدار وقفل مقدسا على ولدى منك ! .. هذه هى التضحية ، وهى الفضيلة الثانية التى انشدها .. فهل انت قادر عليها ! ..

فاستهول القائد المنتصر وقاحتها .. وكبر عليه أن يحتمل كل هذا الذل ، فانقض عليها .. وأمسك بخناقها وصاح وهو يرعد :

– انى لقاتلك أيتها الفاجرة لا محالة ! ..

وانشب أظافره في عنقها فلم تقاوم ، بل استسلمت وصرخت وهى تغافله وتختطف خنجره من غمدة :

– اقتلنى .. أن عجزت فسأقضي أنا على نفسي !.. لن أرد إلىم خنجرك حتى اطمئن على كرامتى ! .. ولخير لى أن أموت من أن تظفر بى متاعا رخيصا كغيرى ! ..

ودست الخنجر في صدرها ، وظلت يدها على مقبضه ، فروع الامير، وسحره جبروتها ، واضطرب ، وتراخت يداه .. فانتهزت أراكسا الفرصة والتصقت به ، فأحس لهيب أنفاسها الحارة ، ودفء بدنها الغض ، ونعومة بشرتها الصقيلة ، فتطوح كالشارب الثمل وخارت عزيمته .. فأسرعت أراكسا وقبلته ، فتاه فكره وهو هو أيضا بان يقبلها .. ولكنها دفعته في عنف ، فتشبث بها ، وارتمي عند قدميها ، وطفق يقبلهما وهو يصيح ويردد كمعتوه :

– سأضحي بكل شئ ؟.. كل شئ ! .. حتى بولدى ! .. ولكن أسرعى .. أسرعى وأعربى عن رغبتك الثالثة يا أراكسا وارحمينى ! ؟ ..

فتمهلت لحظة ، ولمع في عينيها برق معدنى كومض سيف قاطع ، ثم رفعت ذراعها وأومأت بأصبعها الى الساحة الكبيرة وإلى الربوة العالية حيث القفص الحديدي يلوح من بين قضبانه وجه الاسد الرابض السجين وقالت في صوت غائر أجش :

اذا كنت حقا تحبنى ، فيجب ان تدعو الآن شعبك الى هذه الساحة وأن تصارحة بما أعتزمت عليه .. ثم .. ثم يجب أن تتسلق أمام الشعب هذه الربوة ، وأن تفتح القفص الحديدي ، وتطلق الاسد من سجنه ، وتصارعه بمفردك وتقتله ! .. يجب أن تقتله ! .. هذه هى الشجاعة ، وهى الفضيلة الثالثة التى أنشدها والتى تؤكد لى عزمك الراسخ على تحقيق كل ما طلبته منك .. فهل انت قادر عليها ؟ ..

فأبرقت أسارير الامير البطل ، وهتف من أعماق قلبه هتاف المقاتل المستيئس الاعمى :

– لو استحال الاسد الى طود شامخ أو جبل منيع ، فلابد أن أذرو ترابه تحت قدميك يا أراكسا ؟ ..

فصاحت :

– اذن فمر بدعوة الشعب ، وافرج عن الشاعر أتريك زميلى

وصديقى .. لقد طالما ارتاب في حظي ، ولن تتم سعادتى الا اذا رأيته بجوارى ! ..

فاندفع القائد كمخبول ، ونادى رئيس حرسه ، وطلب إلىه أن يستقدم أتريك ، وان ينفخو في الابواق ، وأن يوقظوا جماهير الشعب ويدعوها الى الساحة الكبرى ..

ودوى صوت النفير ، وتلته لعلة الابواق .. فخيل الى أراكسا أن الهواء جن فرحا ، والسماء تفجرت طربا ، والعالم بأسره قد استيقظ من سباته ، وخرج من ضباب أحلامه ، وزحف الى القصر ملهوفا ليشهد هذا الحادث الفذ العظيم..

وجانت منها التفاتة ، فأبصرت أتريك بجوارها ، فصرخت وهى ترتمي عليه وتعانقه :

– الساحر يا أتريك .. نبوءة الساحر .. أتذكر؟..

فتطلع إلىها الشاعر مبهوتا طفق يرتعد ، ثم ضم قيثارته تحت أبطه وانكمش ، وأجال حوله بصره الزائغ خشية أن يعود الجند فيقتادوه الى السجن ويضربوه ثم تمتم :

– أين .. أين أنا ؟..

فعيل صبر أراكسا ، وهمت بأن تصفعه .. ولكنها ارتدت فجأة ، واندلعت عيناها ، وصاحت صيحة قاصفة وقد اخذ بصرها جموع الشعب

وهى تهول متدفقة على الساحة :

– انظر الآن ! .. انظر بنفسك الآن يا أتريك ! ..

وامتلأت الساحة الكبرى بجماهير أثارها وأطلقها الفضول .. فأخذت تتدافع بالمناكب ، وتهدر كالموج ، وتتسابقى الى التجمع تحت شرفة القصر وهى تهتف بحياة الامير ..

وخرج الامير الى الشرفة ، وهو ممسك بيد أراكسا .. فاضطرب الجمهور لحظة ، وما لبث أن أشراب بأعناقه ، ولوح بيديه وشرع يصفق ويهتف ..

وفجأة رفع الامير ذراعه ، فتراخت الجلبة وقرت ، وساد في الساحة شيئا فشيئا صمت عميق ..

ودنا الامير من سور الشرفة ، وأطل على الجمهور المتطلع المتلهف ، وقدم إلىه أراكيا ، ثم قال في صوت واضح المخارج باتر النبرات :

– تعرفون أن أمبراطورنا ارتاكزركسيس قد منحنى مطلق السلطان والحرية في حدود هذه الامارة التى كوفئت بها على جهادى .. فباسم الامبراطور دعوتكم لأعلن فيكم ما استقر عليه عزمى ! .. هذه الفتاة ستصبح في الغد زوجتى ، ولن أعرف بعد إلىوم غيرها سيدة على بلادكم وعلى قلبى ! .. انها منذ الساعة أميرتكم ، ولها ولاولادها حق الحكم والولاية من بعدى !.. أشهدكم على ذلك وأطلب إلىكم أن تهتفوا بحياة

فوجم الجمهور ، وعز عليه أن تطرد الاميرة الشرعية المحبوبة هى وابنها ، وكبر عليه ان تصبح هذه الراقصة الوضعية بين عشية وضحاها زوجة وأميرة ووارثة ..فسرت همهمة كبيرة بين صفوفه ، وتراجع منه فريق وصمت وانكمش ، ولكن فريقا آخر تشجع واخذ يهتف .. وسرعان ما اقتدى به معظم المتخلفين ، وطفق الجميع يهتفون لاراكسا والامير..

ولما خيل الى الامير أن الشعب قد سر بما سمع ، اراد أن يضاعف سروره ، وان يخلب لب اراكسا بتوكيد مشيئتها ، زأن يجعل من هذه الليلة ليلة عيد .. فرفع ذراعه مرة ثانية وقال :

-من تقإلدنا أن ننحر الذبائح تحت قدمي كل عروس ، ولكن دم زوجة أميركم! .. ان قربانها سيكون من دم عريق .. من دم نادر عزيز المنال .. من دم هذا الاسد! ..

وأومأ بيده الى القفص الحديدى القائم فوق الربوة العإلىة وأردف :

-سأطلق سراح هذا الاسد السجين ، وسأصارعه أمام عيونكم وأصرعه! .. واقسم ان زوجتى لن تحل لى الا اذا استطعت أن اجعلها تخطو على جثة هذا الوحش وعلى بساط من دمه .. !

وأشار الى رئيس الحرس ، فناوله سيفا ، فاستله من قرابه ولوح به .. وفي مثل ومض الطرف ، وثب الامير ، وهبط سلم الشرفة ، وتوسط

الشعب ، واتجه صوب الربوة العإلىة..

واذهلت الجماهير هذه المفاجأة غير المنظرة ، وأشاعت بين صفوفها الاعجاب والذعر .. فتراجعت لفورها وأوشكت ان تتفرق ، ثم غلبها الفضول فانطوت على نفسها ، وجثمت في مؤخرة الساحة .. ثم استأنست بالجند المسلحين الذين كانوا قد احاطوا بالربوة وضربوا نطاقا حولها ، فاطمأنت واستسلمت لمتعة المشهد ، وجعلت تصيح متهتف هتافا واستسلمت لمتعة المشهد ، وجعلت تصيح وتهتف هتافا حماسيا مشجعا متواصلا

ودنا الامير من القفص .. وقبل ان يفتح بابه ، التفت وألقى على حبيبته نظرة ، فأرجفت الكبرياء اراكسا من قمة رأسها الى اخمص قدميها.. ولكنها تمالكت نفسها جهدها ، وشدت على يد اتريك ، وظلت مرفوعة الرأس ثابتة .. فابتسم لها الامير ، وحنى سيفه يحييها ثم فتح باب القفص ..

وانطلق الاسد يزأر زئير جبار أذله طول الاسر ، فألى على نفسه أن ينتقم ، وما أن أبصر الامير حتى انقض عليه وهو يهدر ، فتقهقر البطل وراغ ثم غافل الاسد وسدد الى رأسه المليد طعنه .. فزمجر الوحش حنقا والما ، وتحفز ، ثم ضرب الامير بمخلبه في كتفه ، فانخلع بدن الشاب .. ولكنه لم يضطرب ، بل كر على الاسد وعاجله بطعنه أخرى ، فثار ثائرة ودوى زئيره ، ووثب فجأة ودار حول الامير .. ثم واجهه وارتمي بجسمه عليه ، مهشما وجهة ، ممزقا صدره ، موشكا أن يضيق عليه الخناق ويطويه

تحت مخلبيه الغليظين .. فعتالت الصرخات من الساحة الكبرى ، وطفر قلب أراكسا الى حلقها وكاد يخنقها ، واندفع الجند نحو الربوة ملهوفين .. ولكن الامير اقصاهم بصيحة ، ثم تجلد وتماسك .. وافلت من الوحش وعاد فانقض عليه انقضاضا صاعقا ، وأوسعة طعنا مسدودا متداركا محموما .. فأعماه ، فتضعضع الاسد وتخبط ، فلم يمهله ، وعاجله بطعنة في عنقه ، فأرسل الوحش زمجرة مخنوقة ، ثم انهد كجدار متصدع وهوى على الارض مضرجا بدمه .

وفقدت الجماهير صوابها ، وجرفتها نشوة الاعجاب والفرح .. فاندفعت نحو سفح الربوة ، واخترقت نطاق الجند ، وجعلت تهتف وتهلل وتنشد أناشيد النصر ..

وأحست أراكسا وهى واقفة في الشرفة بجوار أتريك انها تكاد تموت كبرا وفخرا ، وأن هالة من النور تسطع حولها ، وسيلا من المجد يتدفق عليها ، ولها من العبادة والتقديس يتصاعد إلبها ويطوقها .. أحست انها حققت كل شئ ، وفازت بكل شئ ، واستحالت في مثل لمح البصر من أمرأة الى الهة ، فذهب بلبها تصور سلطانها المكفول ، وهمت بأن تقفز من الشرفة ، وتزع لتهنئة البطل المنتصر ، ولكنها ما أن خطت خطوة حتى راجعها زهوها العنيد القاسي فغرزت أظافرها في راحة يدها ، وظلت واقفة مرفوعة الرأس تنتظر من الامير أن يقبل بنفسه عليها ، ويلقى تحت قدميها جثة الاسد وسيف النصر..

ولبثت تحدق الى الربوة العإلة .. والجمهور يهتف ، والامير يستجمع

قواه ، وينحنى على الاسد الصريع ، ويحاول أن يحمله ويهبط به من فوق الربوة كي يلقى بجثته تحت قدمي أراكسا..

وتمكن البطل من فريسته .. ورفعها بين ذراعيه ، وتقدم صوب منحدر الربوة العإلية ، وطفق يهبط بخطي وثبدة حذرة وسط عاصفة من الصراخ والتهليل ..

وكان مندلع العينين ، مضموم الشفتين ، متوتر عضلات الوجه ، يلهث من فرط الالم والتعب ، ويغالب نفسه جهده كي يحرص على توازنه ويبلغ نهاية المنحدر ، ويلقى في الساحة الكبيرة بحمله الثقيل ..

وهبط ايضا ، وبينما هتاف الجماهير يدوى في أذنيه ، وأضواء طيف حبيبته تخطف بصره ، ونشوة النصر الكامل الوشيك تضرم في كيانه نار المجد والشوق والحب ، توقف مكرها وترنح .. ترنح أمام ضباب غشيه فجأة وأذهله ، ترنح أمام شئ كثيف غليظ أحس أنه أقوى وأصلب من أية عقبة صادفها في حياته .. ترنح أمام القدر الذى لا يرعى حرمة ، ولا يقدر شجاعة ، ولا يحابى انسانا .. اعترضته في المنحدر حصاة صغيرة .. حصاة تافهة .. حصاة خبيثة .. فنزلت قدمه ، وفقد توازنه ، وهوى متدحرجا على منحدر الربوة ، وحلمه يتبعه ، وجثة الاسد تدفعه ، وتطويه طيا متعاقبل عنيدا في تراب الارض المتربصة الساخرة الجامدة العمياء ..

وبهت الجند والشعب لحظة ، ثم علا صراخهم متمزقا مستهولا مستغثيا .. واندفعوا جميعا نحو سفح الربوة يتشائمون وتضاربون ، وكل

منهم يود أن يسحق الآخر عساه أن يبلغ مقدمة الصفوف ويطمئن على سلامة الامير

واذ ذاك ، وفي غمرة القلق واللهفة والتضرع والامل . ارتفعت اصوات الجنود مخيلة كالرعب ، متحثرجة كإلىأس ، نائحة كالحسرات ، وطفقت تردد :

– مات الامير! .. مات الامير ! ..

فشقت الفضاء صيحة لوعة مجنونة أرسلتها أراكسا وجمد الجمهور كأن برق الهول قد ضربه بصاعقة .. جمد فترة ولم يصدق ، ثم تحرك بغتة وأخذ يجأر ، ثم زحف دفعة واحدة في اتجاه الربوة ليرى بعينيه ويستوثق مما سمع ..

وكان الذهول قد استحوذ على أراكسا ، وبلبل فكرها وشتت عقلها، فلم تستطيع أن تفهم او تتصور .. لم تستطع أن تتصور كيف يحالفها النصر الكامل المطلق ، ثم يخونها في اللحظة نفسها .. كانت بين متقظة وحالمة ، بين واعية وشاردة ، بين متأكدة وغير متأكدة .. فأرادت أن تتأكد أيضا .. أن تستوثق أيضا ، فأسرعت وتركت الشرفة وهمت بأن تهبط الدرج ، ولكن نواح الجنود سمرها في مكانها ، فأحست لاول مرة منذ انتصارها ، لاول مرة في حياتها ، في حياتها الصابرة المطمئنة الواثقة ، أن كل شئ قد تنكر حقا لها ، وكل شئ قد غدر فجاة بها ، وكل شئ قد تهاوى الآن خرائب وانقاضا ، وأبى الا أن يجرفها هى الاخرى ، ويطويها

ويدفنها في تراب أحلامها ..

وبرح بها الكمد وإلىأس والعذاب ، فتحسست الخنجر الرابض في جيب ثوبها ، وعزمت .. عزمت أن تتخلص في لحظة وتنتهي . ولكن فكرة الموت فاجاتها ، فانزعجت وترددت ، وعزت عليها نفسها ، وخانتها شجاعتها فانكمشت وتراجعت ، ولم تعد تطلب عزاء ليأسها وحسرتها وكبريائها أكثر من بقاء ذكرى الحلم الرائع مائلة في ذهنها ، وأكثر من أن ترى البطل الذى أحبها كما لم يحبب رجل امرأة ، وأن تودعه الوداع الاخير ولو بقبلة أو نظرة .. واستنهضت جهدها قواها المضمحلة وصاحت :

– احملوا الامير الى القصر ..!

وكان بعض أفراد الشعب قد تمكنوا من رؤية أميرهم وهالهم منظر جثته المهشمة المشوهة المثخنة بالجراح ، فما أن سمعوا صوت أراكسا وتنبهوا لوجودها ، حتى أشاروا إلىها ، وعرضوا بها ، وتهامسوا سأخطين مستنكرين بأنها هى المجرمة ، وهى القاتلة ! ..

واستبد الحنق بواحد منهم فتشجع ونهض ، ثم توسط الجماهير ولوح بقبضته صوت الشرفة وهتف :

– هذه المرأة هى التى قتلت أميركم ! ..

وتحمس آخرون وصاحوا :

– الموت .. الموت للفاجرة! ..

وعندئذ تنبه الجمهور كله .. وانفجر غضبه الهائل المكظوم ، وساورته حمى الثأر والفتك والتشفي ، فتحول من سفح الربوة وتقدم في اتئاد عازم مروع ، ومشي الى شرفة القصر وهو يردد :

– الموت للفاجرة ! ..

وجحظت عينا أراكسا دهشا ورعبا .. وتمثلت في لحظة خاطفة تتالب عليها بغتة وتمزقها ، فلم تتردد وهمت بأن تنتزع الخنجر من جيب ثوبها .. ولكن أتريك الذى كان يرقب الجمهور ويرقبها ، وثب بها ، ثم أحاطها بذراع كأنها طوق من حديد ، وساقها عنوة واقتدارا إلى بهو القصر ، وهو يصرخ :

– لن أدع الشعب يمثل بجثتك يا أراكسا .. يجب ان نفر ! ..

واقتادها من كتفها ، ثم أوصد باب البهو بأحكام ..

ثم دفعها أمامه دفعا في حجرات القصر الخاوية ، ثم انسل بها من الباب الذى كان قد دخل منه في صحبة الجنود .. ثم جرها في دهليز طويل مظلم سرعان ما افضي بهما الى شارع هادئ غير مطروق . وكان الشارع قد بدأ يتلألأ تحت ضوء الفجر ، ويترامي إلىه الوقت بعد النخر صياح الجنود وهدير الجماهير ..

واحس أتريك أن اراكسا توشك ان تسقط عياء وخورا .. فلم يفقد توازنه ، وأسرع فربط قيثارته بحبل لفه حول عنقه ، ثم حمل أراكسا بين

ذراعيه ، وقيثارته تتأرجح على ظهره ، وطفق يركض في الازقة والدروب التى لم تكن بعد قد غشيتها جلبة الصياح ، حتى بلغ مشارف المدينة .. فتحول عنها واتجه صوب ضاحية فيها غابة كثيفة مهجورة كان يعرفها .. فألقى بحمله في الغابة بين غصون الاشجار وتحت حمايتها ، ثم ارتمي على الارض منهوكا محطما ..

وما أن أحس انه قد بدأ يهدأ ويجمع انفاسه ، حتى حانت منه التفاته الى أراكسا ، ففغر فاه متعجبا ولم يصدق ..

أبصرها تنهض ، تنهض من فورها كأنها لم تفقد الساعة كل عصارتها، وتهيب به وقد استعادت قوتها ونشاطها وجبروتها:

– قم ! ..

فنظر إليها مبهوتا وغمغم:

– الجنود في أثرنا .. ويجب أن تمكث هنا حتى مساء الغد على الاقل! .. معى خبز وجبن ! ..

فرددت صائحة :

– قم ..

فقال :

– والى أين ؟ .. انك تغامرين بحياتك ! ..

فقالت وهى تعض شفتيها :

– اما ان تتبعنى ، واما أن ادعك واذهب بمفردى ! ..

واختطفت من جعبة أتريك المنديل الاحمر الكبير الذى كانت تتمنطق به عندما ترقص ، واتخذت منه شبه نقاب اسدلته على وجهها ، وقالت :

– هيا بنا ! ..

فغطي أتريك رأسه بكوفيته حتى عينيه وأذعن صاغرا

ومشت به الى اطراف المدينة ، وهو مستغرب ينتفض ويتلفت وهى ساكنة صامتة .. وكان حديث الناس مصرع الامير العاشق وفرار الراقصة المجرمة .. فلم تتأثر أراكسا ولم تضطرب ، وعرجت على حي شعبى قصي ، ثم اخترقت الحي ودخلت منطقة جبلية نائية ثم انطلقت في سهل واسع أجرد ينهض في أقصاه منزل أسود متحدب صغير بنى بالرمل والطين..

وما أن لمح الشاعر السهل والبيت حتى تراجع ، وجذب أراكسا من كم ثوبها وصاح :

– وما جدواك الىن من المجئ الى هنا ؟ ..

فلم تجبه بكلمة ، وتقدمت وركلت باب البيت الاسود المتحدب ودخلت ..

وكان الساحر العجوز الذى تنبأ بمستقبلها ووجه حياتها وسلطها على نفسها ، متربعا على الارض ، مكبأ على قدر كبيرة فيها ماء يغلى ، ورأسه الممدود يهتز ، وبدأه المعروقتان ترفرفان فوق القدر ، وفمه الناتئ الغاشم الغليظ يقرأ على الماء بعض التعاويذ والرقى ..

ودنت منه أراكسا ، وقالت وهى تكشف عن وجهها النقاب :

– الا تعرفنى ايها الشيخ؟..

فأجفل الساحر وتطلع إلىها . فجلست القرفصا أمامه ، وحدقت فيه بعينيها النارين لحظة ثم أمسكت بذراعه وصاحت في وجهه وهى ترعد

– لقد ضللتنى أيها الدجال ! .. وما دمت قد عرفت عن حياتى شيئا كثيرا ، فلماذا لم تعرف عنها كل شئ ؟! كان يجب .. كان يجب أن تعرف كل شئ ! .. كان يجب أن تكون أقوى من القدر ! ..

وغافلته وهو مأخوذ ، واتنزعت الخنجر من جيب ثوبها ، وأغمدته في صدره ..

فروع اتريك وصرخ :

– الرجل برئ .. وانت .. انت التى كان يجب أن تكونى أقوى من الطمع ! ..

فرمقته بنظرة هائلة وقالت :

– كان البستان كله ملكي ، فكيف كان يمكن أن اقنع منه بزهرة

واحدة ؟! .. هل من العدل أن يامرنى القدر بالقناعة وهو يعطينى الغنى ؟!.. هذه شريعة ظلم ! .. كان يجب على الساحر أن يفهم أن شريعة القدر ظالمة ، فيخفيها عنى ويجنبنى بطشها .. ولهذا قتلته ! ..

فقال اتريك :

– ليس الساحر باله ! ..

– وانا أيضا لست الهة ! .. انا امرأة ! .. وكل امرأة في دمها لهب الطموح وغريزة تحدى القدر ! .. المرأة نفسها قدر .. وسأظل امرأة برغم هزيمتى ، جريئة فيالسر وجريئة في العسر ! ..

واردفت في صوت هادئ عميق ، وهى تسدل النقاب على وجهها

– عدبنا الى الغابة يا أتريك .. سنمكث فيها ما استطعنا ، ثم نرحل بعد ذلك الى بلد بعيد ..

واوصدت خلفهما الباب .. ومشت في السهل الاجرد الواسع كما يمشي النائم ، والقدر يتعقبها ، وجناحه الاسود الخفي يطوقها ، ويوشك أن يقطع منبت أمالها كما يقطع الزرع منجل الحصاد ..

ولما جن الليل ، واحتوتهم الغابة الكثيفة .. فكرت اراكسا في حظها، وفي جمالها ، وفي مستقبلها ، فأرادت أن تطمئن على نفسها ، فأوقدت النار في قصبة ، وأخرجت مرآتها الصغيرة ونظرت فيها ..

ولكنها لم تكد تنظر حتى رأت الشيب الفظيع قد التهم كل شعرها..

فاقشعر بدنها ، وأيقنت أن القدر ما يزال يلاحقها ، وأنه يابى الا أن يسحقها ويجهز عليها ، فصرت على أسنانها وهتفت :

– سأصبغ شعرى ! ..

ثم تحولت الى أتريك وأهابت به :

– غن لى انشودة الفجر البنفسجي ..

فضرب الشاعر على قيثارته وغنى :

"الفجر يتفتح كالبنفسجية .."

" والبنفسجية هى قلبى .. "

" ولكنى أرى الوادى بالقرب منى .. "

" فمن ذا الذى ينبه الفجر الى خوفي .. "

" وينقذ البنفسجية من هوة الوادى ؟! "

فانفجر الدمع من عينى أراكسا ، ولكنها حبست دمعها جهدها ، ونهضت نافرة واثبة ، ثم تمنطقت بمنديلها الاحمر واختطفت دفها ، ثم هزت الدف في زهو وثقة ، واندفعت صارخة ، وشرعت ترتاض من جديد على الرقص والغناء...

قلب جبار

الحب في حياة البطلة العربية زينوبيا

" اذا كانت عاطفة الحب قد لعبت دورا عظيما في حياة شهيرات النساء فالصراع بين الحب والوطيفة قد لعب دورا أعظم وأخطر عند البعض منهن ، ولاسيما الملكة الذائعة الصيت " زينوبيا " التى كانت تلقب بحامية الشرق . وفي هذه القصة صورة خاطفة من عبقريتها

كان ذلك في عام ٢٧٣ للميلاد ، وفي مدينة " تدمر " السورية العظيمة ، وفي قصر " زينوبيا " ملكة تدمر الذائعة الصيت ..

وكانت زينوبيا ممددة على أريكة مستطيلة ، محتقنة الوجه ، متقبضة التقاطيع ، يقدح الشرر من عينيها السوداوين الساحرتين ، وتعبث يدها الرخصة المتشنجة بمروحة ذهبية صغيرة ، ويتجه بضرها المحدد وسمعها المرهف الى " بياوس " تابعها المقرب ورئيس حرسها الخاص ..

وكان بيلوس ينظر في تضرع وخشوع ويرتجف .. كان يعبدها ولا يجسر حتى على لمس يدها ، وكانت هى تعرف انه يحبها ، وانه اخلص أعوانها لها ، وانه من المحال أن يكذب عليها ، أو يغرر بها ، أو يخون الرسالة المقدسة التى كرست لها نفسها وحياتها . ومع ذلك فقد اجترأ ورفع يديه متوسلا مستجديا وهتف :

– الرحمة ل " جميلة " يا مولاتى ! .. انا الذى بصرتك بحقيقة مسلكها .. انا الذى كشفت لك عن خيانتها .. ولكن شقيقى " سارى " يحبها الى حد الجنون ، وفي عزمه أن يتزوجها ، وهو لابد أن يموت منتحرا لو حرمته أنت منها .. فأشفقى عليها يا مولاتى وعاقبى الرأس فقط ، والرأس هو " ماكونيوس " ، هو الخائن ، وهو صنيعة الرومان في بلادنا !..

فضمت زينوبيا اهدابها ، وصاحت تتلوى وتهدر :

– اتشفق على جميلة من اجل شقيقتك ؟ .. واذن فماذا يجب أن أفعل انا وهى أختى ؟.. انا ايضا أشفق عليها من أعماق قلبى بل أحبها كأنها ابنتى ، لقد ربيتها بعد وفاة أمى وكنت أحس انها بضعة منى وصفوة من دمى .. ولكنها حانتنى وخانت شقيقك وبلادها لتحل محلى ، وتظفر بتاجى ، وتقترن بماكونيوس ، وتجعل منه بتأييد أعدائنا الرومان ملكا على تددمر ، هذه هى أختى .. فكيف تطلب الى أن أرحمها ؟..

واردفت زينوبيا وصوتها يدوى وعيناها تبرقان :

– لا .. لن ارحمها ولن أرحم شريكها .. كلاهما يسعى لهدم الصرح الشامخ الذى ينبت .. كلاهما يسعى لافساد الرسالة المقدسة التى أجاهد لتحقيقها منذ سنتين .. لقد كان الفرس يطمعون في حكم تدمر وسورية والشرق كله .. فحاربهم زوجى المتوفي اوديناتوس ، وقهر ملكهم شهبور ، وعزز استقلال تدمر ومعظم البلاد السورية المجاورة لها .. ثم حالف روما التى نزلت على ارادته ، واعترفت به شريكا مساويا لها في النفوذ على بلاد

المشرق كله ، ولكن ها هى ذى روما ، روما حليفتنا بالامس وشريكتنا ، تتنكر إليوم لنا ، وتتربص بنا ، وتطمع كالفرس لا في استعمارنا نحن فقط وبسط سلطانها السياسي والاقتصادى علينا ، بل في استعمار جميع شعوب الشرق التى وقع معظمها تحت رحمتها ...

وبالامس ، وبالامس القريب ، بعث الى الامبراطور أوريليانوس برسالة أجبت عليها بالرفض القاطع .. رسالة غاشمة يكاد أن يفرض على فيها عقد معاهدة جديدة تجعل من بلادى مقاطعة رومانية وسوقا مملوكة للرومان ، يوجهون سياستها ، ويتحكمون في مرافقها ، ويتصرفون في تجارتها تصرفا يملأ بطونهم ويسوم شعبى شر ضروب الفقر والبؤس والهوان.. فالغرب إليوم يهددنا .. الغرب يطمع فينا .. القرب واقف لنا بالمرصاد، ورسالتى انا هى أن أوحد الشرق تجاهه ، أن أجمع كلمة العرب المظلومين ، وأهل الشرق المستعبدين ، وأضم صفوفهم ، والهب عزائمهم ، واقنعهم بأن في الوحدة خلاصهم ، ثم أوليهم على المستعمر الرومانى عند الاقتضاء فالوحدة الشرقية الشاملة هى دينى ومعتقدى .. وما دمت قد استطعت أن أمد نفوذ بلادى من الفرات الى البحر المتوسط ، سأمضي في تحقيق حلمى ولو غالبت المستحيل . ولقد بدأت بجمع كلمة العرب ، فأنا نفسي عربية بنت عربى كان أميرا من أمراء العراق ، والرومان هم الذين أطلقوا على اسم زينوبيا ، أما أسمي الحقيقى فهو زينب وهو عربى كاسم اختى جميلة . فالعروبة في دمى ، ومصير الشرق كله مرتبط بمصيرى ، وهأنذى بعد ان كسبت العرب ، أفلحت أيضا في اجتذاب معظم شعوب هذا الشرق المعذب ، ولاسيما الشعب المصرى العريق الذى ضاق ذرعا باستعمار

الرومان ، والذى رحب بدعوتى ، وآمن برسالتى ، واستقبل جيوشي في أرضه مؤازرة لا طامعة ، ومسالمة لا مقاتلة ، ومتآخية لا غازية ، ومتضامنة مع مصر كلها في وجوب تكوين جبهة شرقية موحدة متماسكة .. فتدمر السورية ومصر الفرعونية ، هما طليعة جيوش الشرق الموحد ، والقوة العظيمة المرهوبة التى لابد ان تنطلق يوميا وتجاهد لخلع نير الرومان ! .. هذه رسالتى يا بيلوس افضي بها إلىك لاول مرة ، يقينا منى انك ستكون في الغد ساعدى ويمينى بعد أغدر بى ماكونيوس وأتصل بأعداء الشرق وأعداء بلادى .. افما زلت بعد هذا كله تقيم وزنا لأخيم وتشفق عليه من عقاب ينزل بالخائنة جميلة التى بعشقها ؟!.. ان جميلة هى أختى وماكونيوس هو أحد قادة جيشي ، ولكنى في سبيل رسالتى لم أرحم احتا خائنة وقائدا مجرما ! ..

فحدق إلىها بيلوس ، واندفع بالرغم منه وقال :

– افي نيتك حقا ان تعاقبى ماكونيوس ؟..

فغشي الدم وجه زينوبيا ، وصاحت وهى ترتجف :

– نعم .. أنا احبه .. مازلت أحبه .. مازلت أحب ذلك المجرم الذى يريد هلاكي .. ولقد كان في نيتى أن أتزوجه وأجعل منه ملكا ، ولكنى بعد أن خبرته ، وعرفته رجلا فظا غليظا مستبدا ، مولعا بالملذات في شره ، مدمنا على الخمر في جنون ، خفت منه على مصير شعبى وبلادى وسالتى.. فأعرضت عنه ، فاستشعر هو قوتى ، فمال الى اختى الضعيفة ثم

عاهدها على الزواج ، ثم اقدم على الخيانة التى استكشفتها انت ، واستند الى تأييد الرومان وتواطأ مع اختى على الظفر يناجي بعد قتلى .. أجل ، انه إلوم ألد أعدائى ، ومع ذلك فأنا مازلت أحبه .. مازلت منجذبة إله بسحر جماله وفتنة رجولته وقوة الشر المنبعثة حبى له .. أريد أن أكون بعقلى وأرادتى ومصلحة الشرق وبلادى أقوى من سلطانه الغاشم على .. أريد أن أصرع هذا السلطان لاستوثق من نفسي ، واطمئن الى قوتى ، وأحس انى لست امرأة بل بطلة خليقة بان تملك وتحكم وتكون صاحبة هدف ورسالة ومثل أعلى !

فأشرق محيا الضابط الشاب ، وكاد الدمع أن يظفر من عينيه .. فانحنت عليه زينوبيا ولاطفت يده بأناملها ، وقالت في صوت ملؤه الرقة والحنان :

– أنا أعلم يا بيلوس انك انت وحدك الذى تحبنى .. فأحببنى أيضا يا صديقى ، ودع صدق عواطفك المقرون بعظيم اخلاصك بتغلغل على مر الزمن في نفسي ، ويطهرنى من هواى المكر الشائن وينقذنى ، ومن يدرى فقد يأتى يوم تكون فيه أنت يا بيلوس الوفي حبيبى وزوجى !

فانفجرت دموع الشاب ، وأكب على يد مولاته وقبلها .. فتركت له يدها لحظة ، ثم أسرعت وجذبتها وصاحت .

– أما الآن فكف عن هذا الذى لا يليق برجل .. لقد نفذت أنت بنفسك خطتى ، ودعوت ماكونيوس لقضاء السهرة الليلة معى . انه الآن

في الطريق الى هنا متبوعا من حيث لا يدرى بأعوانه من رجال الجيش الخونة الذين أرشدتنى انت إليهم .. وفي اللحظة التى يكون فيها قد غادر منزله ، سيطبق رجالك على داره ويفتشونها وينتزعون منها الوثائق السياسة والخرائط الحربية التى كان في نية ماكونيوس ان يبعث بها الى الرومان . فالخائن سيكون بعد لحظة هنا .. أما اختى فسيعلم الجميع في غد أى مصير كان مصيرها ، فاذهب .. اذهب الآن أنت ، وأكمن في هذا السرداب الصغير .. ومر بقية رجال الحرس بان يكمنوا عم أيضا في القبو المجاور لبهو القصر .

وأرسلت زينوبيا قيقهة طويلة فارتعد بيلوس وهتف :

– أحذرى يا مولاتى وتنبهى ! ..

فصرخت وهى ما تفتأ تضحك :

– لا تخف على ..

ورددت وهى تومئ الى موضع السرداب :

– اذهب .. اذهب حالا ..

وما أن هبط بيلوس في جوف السرداب واختفي ، حتى سمع في الخارج وقع حوافر جواد .. فنصبت زينوبيا قامتها ، وشع من عينيها بريق نوعد شامت .. فصفقت مرتين ، فأقبلت وصيفاتها .. فأشارت إليهن باستقبال ضيفها ، وعادت هى فتمددت على الاريكة بعد أن حلت

شعرها ، وكشفت عن صدرها ، وتأملت في مرآتها منبت نهديها الناصع حيث تتدلى مروحتها الذهبية الصغيرة المتراقصة ..

ودخل ماكونيوس ، فرحبت به الوصيفات .. لوم يجردنه من سلاحه كما جرت العادة ، ثم انحنين أمامه في احترام بالغ واختفين . فاتجه هو صوب زينوبيا ، وجثا على الارض ، والقى التحية ، وبصره المبهور يتفرس في الملكة العظيمة التى ابتسمت له ، واسترخت أمامه ، وتمطت وتماوجت، واستحالت الى انثى ..

ولم تمهله زينوبيا ، وبسطت له ذراعيها الغضتين ، وقالت :

– مرحبا بك أيها القائد .. اكنت تظن انى اعرضت عنك لان قلبى قد انصرف الى رجل غيرك؟.. تعال وأجلس بجوارى ، وتأكد انى لم انبذك فترة الا لأمتحن حبك يا حبيبى ، أما وقد وثقت إلوم فيك بعد تجربة طويلة اقنعتنى أنا نفسي بان لا حياة لى الا في قربك يا ماكونيوس ، فالرأى والعقل والقلب منى قد استقرت جميعا على أن اتخذ منك زوجي وخليلى!.. لهذا دعوتك الليلة .. فتقدم .. تقدم وقبلنى .. بل تقدم وخذنى عربونا على حبى وصدقى . نحن في القصر وحدنا ، ولولا اعتزامى أن أكون لك الليلة ما تجردت على هذه الصورة من غلائلى ، وما صرفت مختارة جميع أعوانى وحرسي

ومالت إله وقلبها يتقطع .. كانت تحدق في وجهه الاسمر الخمرى ، وفي صدره الملبد العريض ، وفي عينيه الزرقاوين المتقدتين ، وتقارن بينه

وبين بيلوس الاعجف المهزول .. فتحس كأن قلبها يعتصر في صدرها .. فتغالب قلبها ، وتغالب حبها ، وتحاول ما استطاعت أن تكبح الردعة المخبولة المتمشية في صميم أحشائها ..

وبهت الرجل ولم يصدق .. ولكن الصراع الذى نشب في قلب زينوبيا ، ضاعف جمالها سحرا وحرارة وفتنة ، كما ضاعف صوتها حماسة واشتعالا وقوة .. فآمن ماكونيوس بانها حقا تحبه ، وأنها قد اعتزمت حقا أن تتزوجه ، فقارن هو الآخر بينها وبين جميلة التى اتصل بها عجزا منه ويأسا .. فراعه حسن زينوبيا الباهر ، وأغراؤها المتلهف القاهر ، وسلطانها المرهوب الذى دان له في النهاية وخضع .. فاندفع نحوها ، وطوقها بذراعيه ، وقبلها .. فآنت المرأة انينا موجعا .. أنين من يطلب ويرفض ، ويشتهى ويقاوم ، ويحب اويكره ، ويقسم وفي نيته أن يغافل ويطعن . ولما اهتاجت حواس ماكونيوس وغلى دمه في عروقه وهم بالرأة ، تملصت منه زينوبيا فجأة ، ثم وثبت كالفهد المطارد ، ثم صاحت مرفوعة الرأس وعيناها تلمعان :

– لا .. الموت أحب الى الساعة مما ينتظرنى في غد على يدك ! .. اقتلنى .. نعم اقتلنى ! .. لقد أحببتك ووثقت فيك ولم أجردك من سلاحك عندما دخلت الى هنا ، أفيكون جزائى منك بعد هذا أن تستمتع الآن بى ، ثم تتزوجنى في غد وتقاسمنى ملكي ، وأنت مضمر في اعماق سريرتك ان تخدعنى وتتخذ من جميلة عشيقة لك ؟ .. لا .. الموت أحب الى .. فاقتلنى ، أمت بيدك سعيدة قبل أن أشهد خيانتك ومصرع حبى!..

فكر عليها ماكونيوس ، وأمسك بذراعها ، وطفق يهزها هزا عنيفا ويقول

– وانت ؟ .. ألست مضمرة في نفسك ان تقترنى بى ثم تتخذى من رئيس حرسك بيلوس عشيقا وحبيبا؟ ..

أجيبى؟..

فصرخت زينوبيا :

– ابدا .. أن بيلوس منذ الآن ملك يمينك .. فمر أحد اعوانك بقتله غدا ، على أن تسلم في الوقت نفسه بموت جميلة ! .. ضحية بضحية .. هذا هو شرط العدل والحب والوفاء ! ..

فتطلع إلىها ماكونيوس مذهلا وتمتم :

– ولكن جميلة أختك .. شقيقتك؟!..

فهتفت زينوبيا :

– أن رابطة القلب أقوى من رابطة الدم .. وأنا لن أكون امرأة وعاشقة اذا سمحت لأختى بالجسد أن تسلبنى من احبه بالجسد والقلب والروح! .. انها هنا .. جاءت لزيارتى وامضت إلىوم معى .. انها في حجرتها الخاصة .. ثالث حجرة بعد هذا الدهليز الطويل .. فاحزم أمرك يا ماكوبيوس ، وأدخل عليها الساعة وقم بواجبك ! ..

فارتعد الرجل من فرعه الى قدمه وغمغم :

– ولكن في وسعك انت ...

فصاحت زينوبيا وهى تدفعه :

– لا .. إنما أريد أن اختبر قوتك انت ، لاستوثق من عمق حبك ، فاكون بعد ذلك لك ! .. سيضمنا مخدعى بعد لحظات .. ففكر في نعيمنا وضع أرادتك في قبضنك وتقدم ..

واحتضنته وقبلته مرة ثانية .. فناء وتصور النشوة الكبرى .. فأسرع وتملص واستل خنجرة وانطلق في الدهليز ..

وساد صمت زافر.. وأحست زينوبيا كان نارا تطوقها ، وكان جزءا حميما عزيزا من كيانها يحترق بهذه تالنار ، وينتزع منها .. فغالبت أيضا نفسها جهدها وتصلبت ، ثم عاد ماكونيوس ، عاد مترنحا متطوحا ، وقدم إلىها الخنجر الدامى ، وارتمي بين ذرارعيها ملهوفا وقال:

– لابد لى منك الساعة والا فقدت عقلى ! .. أريد أن انسي جريمتى فيك وفي نهر الخمر أعب فيه وينقذنى !

فالتقطت زينوبيا انفاسها وصاحت :

– سيكون لك كل شئ .. الجسد والخمر .. الملكة والتاج . انظر الى هذه الجرار الضخمة والعشر .. ان فيها خمرا نادرا جلبتها من أينع كروم بلاد إلىونان ، ويمكنك بعد لحظة واحدة وانت بين احضانى ان تعب في تلك الخمر الالهية حتى ترتوى . ولكن تجرد من بقية سلاحك اولا،

واخلع عنك هذا الرداء الذى يعوق حركاتك .. سلمى .. يا سلمى .. خذى هذا السلاح ، واحملى إلنا كوبين من ذهب ، واغلقى علينا الباب وتنبهى ..

وجاءت الوصيفة بالكوبين ، ثم اختطفت السلاح ، وخرجت به وهى ترمق مولاتها بنظرة جانبية وترتجف . وما ان اختفت حتى ضم ماكونيوس زينوبيا في عنف الى صدره ..فتقلبت المراة فترة بين ذراعيه ثم تصلبت ، فهتف وهو يقبلها ويتشبث بها :

– يالك من ساحرة آخذة بالالباب .. أحبك بقدر الورع الذى ملكنى حيال جثة أختك ! .. انت كالمرجانة فيك ليونة النبات وتحجر المعادن ! ..

فلم تجبه زينوبيا على الفور ، بل ارتعشت فجاة اذ سمعت صهيل خيل تقترب .. فقالت عندئذ لماكونيوس وعينيها تبرق وصوتها يدوى :

– وانت .. انت كالخفاش ، أعمى ، لا تبصر نهارا ولا في ضوء القمر ، أما قوتك فهى البعوض ! .. فانظر .. انظر الى الحديقة .. انظر الآن يا ماكونيوس واسمع ..

وقفزت الى رحبة البهو الفسيح ، وماكونيوس يتطلع إلىها ذاهلا شاردا ، وجذبته من ذراعه ، وأدنته من النافذة ، وطفقت تردد :

– انظر الآن واسمع ..

فلم يكد يحدق حتى انخلع بدنه ، وجحظت عيناه وجمد .. ابصر منظرا فظيعا .. أبصر رفاقه الخونة كلهم وقد جاءوا ملبين دعوة الملكة ، وعزلا من السلاح كما جرت العادة ، يتساقطون الواحد بعد الآخر وهم يذودون عن انفسهم بأيديهم واسنانهم وأرجلهم صارخين مستغيثين ، ورجال الحرس الذين خرجوا بغتة من القبو المجاور للبهو ، يحدقون بهم ، ويهملون السيف في رقابهم ، ويسدون عليهم مسالك الحديقة التى استحالت الى شبه بركة من الدم تحت ضوء القمر ..

وايقن ماكونيوس من المكيدة .. فجن جنونه ، وتحول الى المرأة كوحش كاسر وهو يصرخ :

– الغادرة ! .. الخائنة ! ..

ولكن زينوبيا افلتت منه .. وعدت الى أقصي البهو ، وصاحت وصوتها الهادر يمج حقدا وبغضا وتشفيا :

– الوثائق والخرائط التى كانت في دارك أصبحت في حوزتى ! .. ألم تتفق مع التاجر الرومانى سيبيون على أن تبعث بها معه الى روما ؟ .. ألم تتقاض منه الثمن

انت واختى واعوانك السبعة أكثر من خمسين الف قطعة من الذهب الخالص ؟.. فالخائن الغادر هو أنت .. انت وهم .. وخيانتكم أشد هولا وأفظع الف مرة من العقاب المدبر الذى انزلته بكم . ذلك لانكم لم تخونوا بلادكم فحسب ، بل خنتم العرب كلهم

فطاش صواب ماكونيوس ، ورفع قبضته ، وانقض على زينوبيا . ولكنها أسرعت ودفعته عنها وصرخت :

– الى يا بيلوس .. الى يا رجالى .. هاتوا خمرا للقائد الباسل الشريف! ..

فبرز بيلوس من جوف السرداب وسيفه في يده ..وافجرت أغطية الجرار الضخمة العشر التى تحمل الخمر النادرة المزعومة ، وانطلق منها عشرة رجال كانوا جثما قعودا فيها ، واندفعوا هم ورئيس الحرس نحو ماكونيوس المروع المتخبط الذى انهالت عليه الطعنات من كل صوب ، بينما كانت زينوبيا تضحك ملء رئتيها ، وتضحك مل فوزها ، وبصرها الثابت الراسخ المندلع بشخص في ألم عجيب وفرح عميق الى الجثمان المشوه الذى كانت تضج وتمرح بالامس فيه روح حبيبها ومعبودها ..

ولما شفت غليلها ،مشت الى باب الصدر وفتحته ، ومرقت الى الحديقة ، ومضت تتأمل جثث الخونة ، وتحصيها ، وتعينها بأسماء أصحابها . وفجاة قطبت حاجبيها ، وصاحت بالحرس وعيناها تتوهجان سخطا وغضبا :

– كانوا سبعة رجال .. فأين سابعهم ؟.. أين " ماسكارت " الكلدانى الوصولى الدنئ الذى هو في نظرى أخبثهم وأدهاهم جميعا ؟ .. لا أرى أثرا لجثته .. كيف أفلت منكم ؟.. لابد أن يكون قد فر .. ابحثوا عنه في كل مكان ، وجيئونى به حيا أو ميتا ! ..

ووجم الحرس ..ثم ارتموا في أرجاء الحديقة باحثين منقبين ، ولكنهم لم يعثروا على الضابط الكلدانى الهارب .. فامتطي البعض منهم صهوات جيادهم واندفعوا الى المدينة يبحثون عنه ، وظلت زينوبيا واقفة تتامل صرعى الخيانة وتأمر برفع أشلائهم ، وبيلوس المعجب المفتون يحدق فيها ، وأشعة القمر الساطعة تنصب عليها ، وهى هادئة ثابته شامخة ، كأنها الالهة هشتروت العذراء القوية نفسها !

***

وانقضت أسابيع طويلة ، ولم يستطع رجال الحرس والشرطة أن يقفوا على اى أثر للضابط الكلدانى الخائن ملكارت .. فلم تكترث زينوبيا ، وعكفت بكل قواها على تطهير جيشا .. وعكفت بكل قواها على تطهير جيشها .. فاستاصلت منه العناصر المشبوهة وتولت قيادته بنفسها ، واسندت الى بيلوس المنصب الذى يليها ، وراحت تنظم الصفوف وتجمع السلاح ، وتعد العدة لحرب فاصلة كانت تتوقعها ، وتستشعر مقدمها ، وتحس ان الرومان يتهيأون لها ..

وكانت على ثقافتها الإغريقية الواسعة ، وقد حذقت أيضا فنون الحرب والقتال على يد استاذة تلقوها من الرومان انفسهم .. فكانت تنظم جيشها نهارا ، وتنكب على الخرائط ليلا ، ندرسها ، وتعين المواقع التى يمكن أن يهاجمها العدو منها ، وترشد رجالها إلىها ، ولا تفتأ تردد عليهم أن روما تتربص بهم

وبالفعل كانت روما تستعد .. وكان الامبراطور أوربليانوس الذى بلغه نبأ المكيدة التى أطاحت بماكونيوس صنيعته في تدمر ، والذى أفزعه نزول جيش زينوبيا في مصر متآخيا مع المصريين ، والذى هاله وروعه أن يفلت الشرق من قبضة روما ويصبح ملكا خالصا لاهله ، قد اعد العدة هو الآخر لاسترداد سيطرة الغرب على الشرق ، ومقاتلة حامية الشرق زينوبيا ، وانقاذ امبراطورية الرومان التى كانت قد بدأت تتفكك وتنحل تحت ضربات الشعوب الاجنبية المستعبدة ..

وفي ذات صباح ، شوهدت جيوش اوريليانوس تزحف على الشام كأنها الجراد .. فلم تضطرب زينوبيا ولم تتردد ، وبدأت هى بالهجوم ، ونشبت المعركة الاولى بجوار مدينة انطاكية ..

وكان جيش تدمر السورية ، هو جيش الشرق كله .. كان مؤلفا من سوريين ، ومصريين ، وعراقيين ، وعرب على اختلاف بيئاتهم ، ومشارقة مضطهدين ناقمين ثائرين جمعت بينهم رابطة الالم المشترك وإرادة الحرية والخلاص

وكان كل منهم يقاتل من أجل مجموع لا من أجل أفراد .. ومن اجل وطن شرقى كبير لا من أجل وطن أقليمي صغير ، فكانت روحهم واحدة ، وعزيمتهم باترة ، واتحادهم في الامل والهدف والرسالة مضرب الامثال ..

وأهابت زينوبيا بعبقريتها ، وقامت بحركة التفاف بارعة حول أحد أجنحة جيش أوريليانوس .. فأحدثت به فجوة عميقة وكانت على وشك

أن تهزمه . ولكن القائد الرومانى الذى تكبد خسائر لم تكن في حسبانه ، تراجع وطلب النجدة ، ثم سد الفجوة ، ثم كر على جيش الشرق بجحافل جرارة . فنشبت المعركة الثانية بالقرب من مدينة حمص ، حيث قاتل الشرقيون قتال الابطال ، ودافعوا عن الارض شبرا فشبرا ، و زينوبيا في طليعتهم تقاتل معهم ، وتتلقى الضربات مثلهم ، وتبذل قصاراها في توجيه حركات الجيش وفق مناورة جديدة لم تخطر للقائد الرومانى في بال..

وجمعت بعض فرقها وأمرتها بأه تقوم بهجوم ساحق في جانب معين من ارض المعركة .. فاعتقد الرومان أن جيش العدو قد تركز كله في هذا الجابن ، فحملوا عليه بجمعهم .. فأضعفوا قلب جيشهم ، فأسرعت زينوبيا وهاجمتهم هجوما مباغتا عنيفا ، وأوشكت للمرة الثانية أن تحرز النصر. ولكن الامبراطور نفسه تدخل في المعركة وجلب نجدات أخرى ، ثم ضم صفوفه وهجم ..

وأحست زينوبيا أن امدادات العدو تتدفق كالسيل وأن ليس في مقدورها هى أن تقابلها بمثلها .. فرأت أن تتراجع ، وترتد الى تدمر ، وتتحصن فيها ، وتظل تقاتل خلف أسوارها حتى تعزز جيشها بقوى جديدة وتتاهب لهجوم ساحق نهائى ..

ونشبت المعركة الثالثة في تدمر نفسها ، ونصب الرومان مجانيقهم ، وشرعوا يضربون أسوار المدينة .. فكان رجال جيش الشرق يتسربون من أقبية خفية وسراديب غير منظورة ، ويتقدمون بغتة خارج الاسوار ، منقضين على الآلات المهلكة ، مستبسلين غير هيابيم ، يحاولون تدميرها

وهم يصيحون ويجارون ، وينشدون اناشيد تستنهض عزائمهم ، وتضاعف حماستهم ، وتلهب في صدورهم جذوة البطولة وروح الايمان والاستشهاد

واستحالت الحرب الى سلسة معارك دموية هائلة ، ودام الحصار طويلا ، ونفد الطعام ، ولاح في البلاد شبح الجوع . ومع ذلك فقد كان الشرقيون المحاصرون أثبت جنانا من اعدائهم ، وأصلب أرادة ، وأقوى احتمالا .. فحفروا الخنادق في الشوارع ، وأقاموا المتاريس ، وجعلوا من كل بيت حصنا ، ومن كل زقاق مخبأ ، ومن كل فرد جنديا مقاتلا ..

وكانوا اذا ابصروا واحدا منهم يتبرم بالقتال ويطلب التسليم يقتلونه شر قتلة ، ثم يلقون بجثته من فوق الاسوار طعاما للرومان .. اما زينوبيا فكانت تنتقل بينهم ، وتثيرهم وتحفزهم ، وتقاتل في عزم كما يقاتلون ، وبيلوس بجوارها، يدارأ الخطر عنها ، ويود ان يموت هو ولكن بعد أن يكفل لها النصر وينقذها ..

وعظت خسائر الرومان ، وفترت هجماتهم ، ودب إلىأس في قلب قائدهم . ففكر في طلب هدنة تعقبها مفاوضة . فأحست زينوبيا ضعفه وتخازله وأيقنت ان النصر بات بين قوسين منها أو أدنى ، ولكن شيئا عجيبا وقع بغتة .. شيئا داهما مفزعا مستطيرا لم يكن يتوقعه انسان في تدمر أو يتصوره . تسلل بين صفوف الجيش رجل ملثم ، وغافل القواد والضباط والجند وهم يقاتلون ، ثم ارتمي على الاسوار ، وقفز منها ، وهبط الى معسكر العدر ، وطفق يلوح بعلم أبيض ، ويتجه بخطى حثيثة صوب خيمة القائد الرومانى ..

وكان هذا الرجل هو ملكارت .. هو الضابط الكلدانى الخائن الذى بعد ان أفلت من رجال الحرس والشرطة ، ظل مستخفيا في كوخ احد الفلاحين في ضاحية قصية من ضواحى المدينة ، كي يبرز في الساعة الفاصلة ، فيتصل بالرومان ، ويعاونهم ويساومهم على العرض ..

وأبصرته جموع المقاتلين الشرقيين ، وهو يرفع العلم الابيض ، وعرفته زينوبيا ورجالها .. فهالهم ظهوره الفجائى في هذه اللحظة ، وأيقنوا من عزمه على ارتكاب خيانة مروعة قد تؤدى بهم . فاندفعوا كالجوارح ، وهبط معظمهم الاسوار ، وحملوا على العدو حملة صادقة ، مقتحمين صفوفه ، مجندلين فرسانه ، محطمين مجانيقه مضرمين النار في ذخائره .. ولكن ملكارت كان قد سبقهم .. كان قد أسرع وأرشد الرومان الى الزاوية الشمإلية من الاسوار التى لم يدعم قادة جيش تدمر تحصينها ثقة منهم أن العدو لم يهجم منها ، نظرا لقربها من مستنقعات كبيرة قد يغوص فيها الجيش كله . فالى تلك الزاوية الشمإلية مالت حشود الرومان . قاتل جزء منها في القلب ليرد هجمات العرب والمشارقة ، وانحرف الجزء الاكبر صوب الشمال ومعه بعض مجانيقة التى تحطم ، وطفق وهو غارق في الوحل يضرب السور الضعيف بالاحجار حتى فتح فيه تغرة كبيرة ، سرعان مانفذت في مثل خطف البرق أسوار تدمر ..

وتلفتت زينوبيا مبهوتة ومذعورة ، وهى تقاتل بجوار بيلوس ، واذا بجند الرومان يحدقون بها ، وينقضون عليها ، ويصوبون سيوفهم الى صدرها ،وقائدهم يردهم عنها زجرا متوعدا ، ويأمرها هى بالخضوع والتسليم

وحانت منها التفاتة ، فأبصرت بيلوس وقد جرده الجند من سلاحه مغلول اليدين بطوق من حديد . فتاه صوابها ، اختبل عقلها ، وتصورت نفسها بعين خيالها أسيرة مهانة ذليلة يعرضها أعداؤها في شوراع روما مهزلة حية للمتفرجين . فصرخت في الجند صرخة ملكة عزيزة ثم تراجعت ورفعت خنجرها ، وهمت بان تغمده في صدرها . ولكن القائد الرومانى الذى كان يرصدها ، أسرع واختطف الخنجر منها ، ثم أطبق عليها برجاله ، وساقها الى معسكره هى وبيلوس

ومشت زينوبيا مرفوعة الرأس ، وهتاف جيش الشرق وشعب تدمر يدوى حولها :

- الموت ولا التسليم .. !

فرفعت ذراعها ، ورددت بأعلى صوتها :

- الموت ولا التسليم .. !

وأبت زينوبيا أن تسلم ..أبت ان تنزل في روما وتمتهن . لم تستطع ان تموت بضربة الخنجر ، فاعتزمت ان تموت بنار الظمأ ونهش الجوع .. واضربت عن الطعام والشراب ولم تنبلغ وهى في الطريق الى رومغ بكسرة خبز واحدة او جرعة ماء واقتدى بها بيلوس وعف هو ايضا عن كل غذاء ، ومع ذلك فقد كان لا يتعذب بالظمأ والجوع قدر عذابه لمحنة بلاده ومحنة المرأة العظيمة التى يمجدها ويعبدها .. وكانت خيمتها مجاورة لخيمته ، فكان يراها وتمزق .. كان يراها زائغة العينين ، غائرة الوجنتين ، صفراء

الوجه ، تهزل وتضمر شيئا فشيئا وتستعجل الى هيكل عظمي . فيجن جنونه ، ويلتمس الى الحارس الرومانى أن يدعه يذهب إلىها ، فيأذن له الحارس بمكانته ، فيجف الى زينوبيا ، ويجلس عند قدميها ، ويظل بضع لحظات بعزيها ويخفف عنها وهو لا يجرؤ على ان يذرف دمعة واحدة أمامها ..

وبرح يزينوبيا الظمأ وحرق صدرها ، اضناها الجوع واكل احشاءها ، وعصف بجثمانها كله تلهفا على الموت عاجل ينقذها من عار المهانة والاذلال في بلد عدوها .. فازدادت شحوبا ، وازدادت نحولا ، وباتت أشبه بظل زائل او روح حائر او طيف خيال..

وفي ذات ليلة ، وكل من في المعسكر نيام ، ارسلت زينوبيا صرخة متحشرجة ممزقة .. ففزع القائد الرومانى ، وأسرع بنفسه ليطمئن على حياتها ، فتحته عنها في كبر ، ونادت يبلوس ، فأرسل القائد في طلب زميلها ..

ثم شرع يحاسنها ، ويمكر بها ،ويقنعها بتناول قطعة خبز وكوب ماء ، ويعدها بأن يعفو عنها ، ولا يعرضها أمام الرومان كأسيرة ، بل يصونها ويكرمها ،ويقطعها أرضا عظيمة وقصرا عنيفا خليقين بها . ولكن زينوبيا في وجهه والجوع يقطع احشائها:

– ولماذا كنت قد طلبت الموت أيها القائد اذا كان في نيتى أن ابيع نفسي في سوق روما ؟ .. لن تظفروا منى الا بجثتى ، لقد قاتلناكم قتال

الجبابرة ، ولولا الخيانة لانتصرنا عليكم وكنتم انتم الآن في قبضتى!..

وهتف:

– اين بيلوس؟ ..

ولماراته اندفعت نحوه، وتشبثت بعنقه ، واردفت وعيناها تتألقان تألق عيون الشهداء :

– لقد غدر بى الخائن ملكارت يا بيلوس ، فلم استطع ان اتم رسالتى ..ولكنى أيقظت جميع شعوب الشرق ، وعلمتهم أن في الوحدة خلاصهم ، وهذا حسبى فافرح يا بيلوس ولا تحزن ،فلابد ان ياتى ويظهر ويقهر ، فيكتب له المجد المخلد بالنصر المين ! ...

وخارقت قواها ، فطوقت بيلوس بذراعها ، وقبلته أول وآخر قبلة .. ثم انكمشت في حضنه ، واسترخت على قلبه ، وصعدت نفسا مستطيلا ، واغمضت عينيها السوداوين الساحرتين الذابلتين ..

وماتت زينوبيا الملكة السورية العظيمة ، جامعة شعوب الشرق وحاميتها ، ماتت قبل بيلوس بيومين ، وأصبحت كما ارادت جثة هامدة قبا ان تصل الى روما ..

الفهرس